دكتور/ عصمت سيف الدولة

مشكلة فلسطين
من وجهة نظر قومية

دار الموقف العربي
للصحافة والنشر والتوزيع
٢٨ شارع قصر العيني
ت ٣٥٥٦٤٢٥ [illegible]

١ـمنذ أكثر من نصف قرن تقوم فى فلسطين محاولة لانتزاع الأرض من البشر . بدأت اختلاساً خفياً ثم تحولت إلى اغتصاب بالقوة . انها ليست احتلالاً لفلسطين أرضاً وبشراً تسخر به القوى المحتلة كلاً من الأرض والبشر لخدمة التقدم فى بلادها البعيدة كما كانت تفعل انجلترا قبل سنة ١٩٤٨ ، ولكنها محاولة بدأت قبل الاحتلال الانجليزى واستمرت فى ظله وماتزال باقية بعده ، فبها تحاول الحركة الصهيونية الاستيلاء على الأرض « خالية » من الشعب العربى ، وتوطين بشر آخرين فيها بدلاً من المطرودين ، إنها محاولة قريبة الشبه بما فعل المهاجرون الأوروبيون القدامى فى أمريكا واستراليا حيث أبادوا البشر ليقيموا على الأرض الخالية مجتمعاتهم الجديدة .

وفى سنة ١٩٤٨ استطاعت الحركة الصهيونية أن تقيم على أرض فلسطين دولة باسم « اسرائيل » اعترفت بها أغلبية دول العالم وقبلت عضوا فى هيئة الأمم المتحدة . ورفضت الدول العربية الاعتراف بها واشتبكت معها فى ثلاث جولات عسكرية خلال عشرين عاماً وماتزال اسرائيل باقية .

وقد عاصرت تلك المشكلة ثلاثة أجيال عربية . تتابعت عليها النظم السياسية والاجتماعية المختلفة ، وتغيرت من حولها الظروف الدولية ، وفى كل جيل ، وتحت كل نظام .

ومع كل ظرف دولى ، طرحت للمشكلة عشرات التفسيرات ، وقدمت لها عشرات الحلول ، وبذلت فى حلها عشرات المحاولات ، وكتبت عنها مئات الكتب .. فلم تزد المشكلة إلا حدة وان كادت كل تلك الأحداث و « الاجتهادات » أن تخفى الاجابة الصحيحة على أول الأسئلة التى تطرحها : ماهى حقيقة المشكلة ؟ .

وجاءت هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ فازداد الأمر تعقيداً . فمنذ عام ١٩٦٧ جذب الصراع ضد الصهيونية إلى ساحته أفرادا وجماعات ومنظمات وشعوباً ودولاً من أطراف الأرض جميعاً ، بحيث يمكن القول ـ بدون أية مبالغة ـ إن كل القوى النشيطة فى العالم أصبحت أطرافاً ذات نشاط فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين . وحمل كل طرف « قضيته » معه ، بعداً جديداً ومضموناً مضافاً ، الى أبعاد ومضامين المشكلة الأسلية .

وهكذا أصبح الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين دائراً بين أطراف عدة على مضامين متعددة من أجل غايات متباينة ، تستعمل فيه كل أنواع الأسلحة من أول الكلمات والنظريات إلى آخر الصواريخ والطائرات . ولم يعد أحد يذكر حتى ذرائع القتال فى يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . فقد عرت الأيام ماكان مستوراً وكشفت نوايا كل الأطراف فبانت حتى لأقصر الناس نظراً الأعماق الحقيقية للصراع . فلا هو صراع حول أمن إسرائيل « المستضعفة » فى مواجهة البغى العربى المتفوق فى عدة وعداء ... ، ولا هو صراع حول الملاحة فى خليج العقبة ، ولاهو صراع حول أسلوب الحياة فى الأرض العربية ، بل هو صراع يدور ـ بلا مواربة ـ حول الوجود والمصير . الوجود العربى ومصيره ، والوجود الصهيونى ومصيره ، والوجود الاستعمارى ومصيره فى الوطن العربى وربما فى العالم .

وهكذا يعرف كل الشركاء والحلفاء فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين أنه ذو أثر حاسم فى مصير كثير من العقائد (الأيديولوچيات) والقوى والمصالح والنظم ، العربية والصهيونية وربما العالمية ، وأنه عندما تُحل مشكلة فلسطين لن يكون المستقبل العربى مجرد امتداد لما سبق بل سيكون مستقبلاً مختلفاً نوعياً فى قواه وفى نظمه وفى غلباته ، ومن هنا أصبح « المستقبل » العربى ذاته ، مستقبل الأمة العربية كلها ، موضوعاً يدور من أجله الصراع بين القوى المشتبكة فى الصراع حول مستقبل فلسطين . ويعد له كل شريك فى الصراع ، وكل حليف لإحدى قواه « الصيغة » التى تتفق مع مصالحه .

ويدفع بالصراع الذى يدور حول مشكلة فلسطين إلى الاتجاهات التى يعتقد أنها مؤدية إلى مايريد فى الوطن العربى . وليست « النظريات » التى كثرت أعلامها فى سماء الوطن العربى منذ سنة ١٩٦٧ إلا الصيغ النظرية لا لمستقبل فلسطين بل لمستقبل الأمة العربية . وهى تطرح على الجماهير العربية لا بقصد تثقيفها أو تعريفها بالحقيقة كما لابد بزعم دعاتها ولكن للاتجاه بالجماهير العربية من خلال الصراع القائم إلى غايات نهائية معينة .

فى غمار هذا كله يصبح من المهم لنا أن نعرف حقيقة مشكلة فلسطين ، وأن نظل واعين حقيقتها ، وألا نسمح لأحد بأن يضللنا عن هذه الحقيقة ، فإننا لن نعرف قط الحل الصحيح لأية مشكلة إذا جهلنا حقيقتها ، وعندما لانعرف الحل الصحيح لن تحل المشكلة قط . ولقد نعرف أن « كل مشكلة اجتماعية لها حقيقة واحدة مهما اختلف فهم الناس لها وبصرف النظر عن مدى إدراك صاحبها لحقيقتها . وأن أية مشكلة اجتماعية ليس لها إلا حل صحيح واحد فى واقع اجتماعى معين فى وقت معين . قد يكون لها أكثر من حل خاطىء ، قاصر أو متجاوز أو مناقض ، يحاوله صاحبه فيفشل فى حلها ، ولكن حلها الصحيح لايمكن إلا أن يكون واحداً بحكم أن الواقع الاجتماعى واحد » .

وعندما نطبق هذا على المجتمع القومى « الأمة » ننتهى إلى أن « للمشكلات الاجتماعية فى الأمة حلولاً موضوعية يحددها الوجود القومى ذاته بما يتفق مع التقدم القومى . والصراع الاجتماعى حول المشكلات الاجتماعية لايعنى أن تلك الحلول غير معروفة أو غير قابلة للمعرفة ، بل يعنى تماماً أن الصراع يدور بين قوى تزعم كل منها أنها تستهدف الحل الموضوعى الصحيح ، وقد يكونون كلهم خاطئين ، ولكن الذى لايمكن أن يكون أبداً أن يكونوا كلهم على حق فيما يزعمون » .

فما هى حقيقة مشكلة فلسطين وماهو حلها الصحيح ؟ :

لنبدأ بالوقائع التاريخية وهى بسيطة : منذ الفتح الإسلامى والشعب العربى هو الذى يقيم ويعيش على أرض فلسطين . ومن أجلها دارت أقسى

معارك الدفاع عن الأرض المشتركة ضد الغزو الصليبى ، واشترك كل الشعب العربى بأمواله وأبنائه فى تحرير فلسطين واستردادها من الصليبيين . ومنذ أن انحسرت نهائياً موجات الغزو الصليبى لم يغادر الشعب العربى أرض فلسطين إلى أن طرد بعضه من بعضها سنة ١٩٤٨ . هذا تاريخ غير منكور . ولم ينكر أحد حتى من الصهاينة أن الشعب العربى هو الذى كان يقيم ويعيش على أرض فلسطين منذ الفتح الإسلامى حتى سنة ١٩٤٨ .

وهكذا ندرك عدم جدوى كل ماكتب فى محاولة اثبات مالم ينكره أحد ، إنما يبدأ الخلاف حول تفسير الوقائع التاريخية غير المنكورة . وسنعرض فيما يلى الموقف العربى القومى ثم الموقف الصهيونى قبل أن نعرض الحل القومى للمشكلة .

٢ ـ الموقف القومى :

الموقف القومى من مشكلة فلسطين بسيط وواضح :

فعندما ننظر إلى المجتمعات خلال تطورها الجدلى وحركتها التى لاتتوقف من الماضى إلى المستقبل . نفهم أن فلسطين ، أرضاً وشعباً ، قد دخلت طوراً جديداً بالفتح الإسلامى . لم تعد منذ ذلك الحين موقعاً للصراع القبلى بين الكنعانيين والإسرائيليين والرومان بل استقر الأمر فيها لتتخطى مرحلة البداوة القبلية حيث لاتخص الأرض شعباً بعينه لتكون جزءاً مؤثراً ومتأثراً ، متحركا ، ومتغيراً ، ومتطوراً مع بقية الجماعات والشعوب التى وفر لها الفتح الإسلامى أوسع فرص التفاعل التاريخى لتكون معاً أمة عربية .

وإذا كانت العلاقات العرقية (السامية) بين المقيمين فى فلسطين والمقيمين فى بقية أنحاء الوطن العربى قد سهلت عملية التفاعل تلك فإن المهم هو مأدى اليه التفاعل من تطور تقدمى انصهرت فيه الجماعات والشعوب السابقة على التكوين القومى العربى وأصبحت به أمة واحدة . من هنا فإنا لانطرح مشكلة فلسطين ولانفهمها ولانحتج فيها استناداً إلى أية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومى .ولانقبل من أحد أن يطرحها أو

يفهمها أويحتج فيها بما يسبق دخول فلسطين أرضاً وشعباً عنصراً من عناصر التكوين التاريخى للأمة العربية . ذلك لأننا كقوميين ، والقومية تقدمية ، لانحتج ولانقبل الاحتجاج على ثمرات التطور التاريخى بتاريخ البداوة الأولى .

فلسطين إذن جزء من الأمة العربية :

وبالتالى فإن محاولة طرد الشعب العربى واغتصاب الأرض العربية لتوطين بشر مستوردين هو اعتداء على الوجود القومى للأمة العربية لابد من أن يرد . هو انتقاص من المجتمع العربى لابد من أن يستكمل . هو فسخ لعلاقة تاريخية بين الشعب والأرض ، لابد من أن يزول ليعود الشعب الى الأرض وتعود الأرض الى الشعب فتبقى الأمة العربية « كما هى » . لا أكثر . كل هذا بصرف النظر عن جنس أو ديانة أو لون أو مبادىء أو نوايا المعتدين . إن هذا مهم . لأن الوجود القومى مجرد وجود خاص . فهو اضافة الى ، وليس انتقاصاً من ، وجود الجماعات الإنسانية الأخرى .

وهكذا تكون القومية علاقة قبول واحترام للوجود الخاص لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، وهذا يعنى ، طبقاً لنظريتنا القومية ، أن حق الأمة العربية فى الوجود الكامل لايتوقف على أحد . وبالتالى فإن حق الشعب العربى فى استكمال وجود أمته باسترداد فلسطين لايتوقف على ما اذا كان المعتدون يهوداً أو غير يهود ، رأسماليين أو من الذين لايملكون شيئاً يخسرونه، كما لايتوقف، على أى وجه وفى أى ظرف، على موقف الدول من هذا الحق سواء كانت دولاً كبرى أو دولاً صغرى ، منفردة أو مجتمعة فى منظمة هيئة الأمم المتحدة .

إن كل هذا الذى يتصل بالمعتدين وحلفائهم والموقف الدولى من المشكلة قد يؤثر بشكل أو بآخر على أسلوب حلها ، أما حقيقتها القومية كما هى محددة بالوجود القومى العربى فلا تتأثر ولاتتغير بمواقف القوى الأخرى معتدية كانت أو حليفة أو صديقة . حتى لو كانت حليفة أو صديقة للشعب العربى نفسه .

تترتب على هذا عدة نتائج هامة يتميز بها الموقف القومى من مشكلة فلسطين .

أولاها :أن الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين ليس قائماً بين الشعب العربى وبين « اليهود » لأنهم يهود . هذا خطأ جسيم فى فهم المشكلة . إن العروبة قومية واليهودية دين ، فلكل منهما دلالة مختلفة على مضامين مختلفة . القومية العربية علاقة انتماء إلى مجتمع قومى (أمة) والدين اليهودى علاقة إيمان بمقولات ميتافيزيقية .وكما يكون العربى يهودياً ويبقى عربياً يكون اليهودى منتمياً إلى واحد من المجتمعات التى تملأ الأرض بدون أن يكون ثمة تناقض بين انتمائه الاجتماعى وإيمانه الدينى . ليس ثمة شىء أبعد عن حقيقة مشكلة فلسطين وأكثر تشويهاً لها من القول بأنها مشكلة صراع دينى يحلها قبول التعايش بين الأديان على أرض فلسطين . فيوم أن اغتصب الصليبيون المسيحيون أرض فلسطين قاتل العرب ، مسلمين ومسيحيين ، الى أن استردوا الأرض المغتصبة ، ومن قبل أن يبدأ العدوان الصهيونى على فلسطين كان العرب من كل دين يعيشون فى سلام على أرض فلسطين .

ان مشكلة فلسطين مشكلة أرض مغتصبة وليست مشكلة تبشير بأحد الأديان . ومشكلة قومية وليست مشكلة دينية . وإذا كان الصهاينة المعتدون يخلطون القومية بالدين ويبررون العدوان بنصوص من « التوراة » فذلك مايقوله المعتدون أنفسهم لخدمة أغراضهم ولتبرير عدوانهم .. وعندما نتزلق نحن إلى هذا الخطأ نكون قد قبلنا حجة المعتدين وشوهنا حقيقة مشكلتنا فلا نعرف حلها الصحيح ولانستطيع أن نحلها . وقد نقع فى الخطأ حتى بعيداً عن التصدى لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض « المتفقهين » الأمة العربية التى ينتمون إليها ، والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ، ويقدمون الدين بديلاً عن القومية ، أو عندما ينفعل « المتعصبون » فيصبون جام غضبهم على أمتهم العربية من اليهود ، لايفعلون شيئاً بتلك الأخطاء الغبية المضللة سوى خذلان أمتهم المعتدى عليها والانتصار للصهيونية المعتدية . إذ عندما يصبح الدين بديلاً عن القومية ثم تطرح

مشكلة فلسطين ينتهى بهم الأمر الى اقتسام الوطن العربى فيما بين الأديان الثلاثة على الأقل .

وأياً ما كانت النسبة بين الأقسام فسيكون على كل مسلم أو مسيحى أن يخرج من أرض اليهود فى فلسطين . أى يكون عليهم أن يقبلوا الحل الصهيونى الذى يظنون أنهم يحاربونه بالتعصب الدينى . فهل يقبلون ماتنتهى إليه منطلقاتهم أم هى أخطاء غبية ؟ .

النتيجة الثانية :هو أن الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين ليس قائماً حول النظم الاجتماعية فى الأرض العربية بين الرجعيين والتقدميين . إنما هو قائم حول الأرض المغتصبة ولمن تكون . فمن حيث الوقائع التاريخية كان كثيرون من عتاة الصهاينة ورواد الغزو الصهيونى لفلسطين من « الاشتراكيين » بينما كان المدافعون عن الأرض العربية « إقطاعيين » أو رأسماليين . وأدى ذلك إلى وقوع أكثر الناس ادعاء للفهم « العلمى » للمشكلات فى خطأ فهم حقيقة مشكلة فلسطين باعتراف الاتحاد السوفييتى بإسرائيل فور إعلان قيامها وانحياز الشيوعيين العرب إلى الصهيونية ضد أمتهم العربية .

ولم يلبث التاريخ طويلاً حتى كشف ذلك الخطأ « العلمى » جداً . اذ فى مرحلة لاحقة أصبح الصهاينة الذين كانوا يوماً من أعضاء « البوند الماركسى » حلفاء أوفياء للإمبريالية الأمريكية ، بينما أصبح المدافعون عن الأرض العربية من التقدميين والاشتراكيين . وفى الحالتين تغيرت مواقف القوى من النظم الاجتماعية ، ولكن المشكلة ظلت مستمرة والصراع قائماً ، وقد صحح الاتحاد السوفيتى - بقدر - خطأه الأول . وصحح كثير من الماركسيين العرب مواقفهم تصحيحاً كاملاً .

ولكن العبرة ليست بتصحيح المواقف إنما العبرة بصحة فهم حقيقة مشكلة فلسطين . ومشكلة فلسطين مشكلة أثارها اغتصاب الأرض العربية . والأرض هى مصدر الامكانيات المادية للتقدم الاجتماعى ، فاغتصابها من الشعب العربى معوق لتقدمه فهو عدوان رجعى بصرف النظر عما يفعله بها وفيها المغتصبون . وإذا كان الصهاينة لايكفون عن عقد المقارنات بين

أسلوب الانتجاع الجماعى فى الأرض المغتصبة وبين أسلوب الانتجاع الفردى فى الوطن العربى فهم يحاولون اخفاء المشكلة الأصلية تحت ستار الادعاءات التقدمية ليبرروا بقاءهم فى الأرض المغتصبة . وهو تضليل لم يضلل مثله أحد من قبل يوم أن نشب الصراع المسلح بين الصين والاتحاد السوفيتى حول بضعة أميال مربعة من الأرض على الحدود بين البلدين .

لم يكن هناك شك فى أن الاشتراكية هى نظام الحياة الذى ينتظر تلك الأرض سواء آلت إلى الصين أو إلى الاتحاد السوفيتى . لم يكن أحد من الطرفين يشك فى هذا ولم يثره أحد من الطرفين . انما كان الصراع المسلح الذى وصل الى حد القتال الفعلى بين الاشتراكيين من الجانبين دائراً حول لمن تكون الأرض . إن كان هذا واضحاً يتضح لنا غباء الأخطاء المضللة التى تطرح مشكلة فلسطين كما لو كانت صراعاً حول ملكية أدوات الإنتاج فى الأرض العربية .

وهى أخطاء غبية ومضللة حتى لو كانت تستهدف - غروراً - إضعاف الجبهة الداخلية فى إسرائيل أو حتى شقها . لأننا إنما نضعف القوى المعادية لنمزقها انتصاراً لحقنا ، ولكن لاندفع من حقنا ثمن اضعافها وتمزيقها . ولايجدينا شيئاً أن يتمزق المجتمع الصهيونى فى إسرائيل إلا من حيث إنه قد يسهل حل مشكلة الأرض المغتصبة منا . ولكن عندما يصبح هذا التمزيق غاية فى ذاته بديلة عن الغاية الأصلية فلن يزيد على أن يكون انتقالاً لأرض فلسطين من فريق صهيونى نقول إنه رجعى الى فريق صهيونى نقول انه تقدمى . وتكون المسألة كلها عبثاً ، وعندما ينسى بعض المتشدقين بالتقدمية والاشتراكية والكادحين والبروليتاريا ... إلى آخر هذه الكلمات الكبيرة أن كل فلاح فى إسرائيل يزرع أرض فلاح عربى ، وأن كل عامل فى إسرائيل يحتل مكان عامل عربى ، وأن كل أسرة فى إسرائيل تعيش فى منزل أسرة عربية . عندما ينسون أن كل خطوة الى الأمام فى إسرائيل قد انتزعت الأقدام العربية من فوق طريق التقدم الاجتماعى ، ثم يفتشون عن حلفاء من التقدميين الاشتراكيين الكادحين من بين الغاصبين بدعوى أن المشكلة مشكلة صراع حول ملكية أدوات الإنتاج يدور بين « الطبقات » وليس

صراعاً حول ملكية مصادر الإنتاج يدور بين المجتمعات . فإنهم لايفعلون شيئاً سوى دخول معركة الصراع الاجتماعى بين الغاصبين لينتصر فريق على فريق . يدخلونها ، وياللسخرية ، من مواقع التشرد التى طردهم إليها الغاصبون . عندئذ يكون بعدهم عن فهم مشكلة فلسطين مساوياً لبعدهم عن الأرض المغتصبة .

وقد يقع الخطأ حتى بعيداً عن صفوف المطرودين أو التصدى المباشر لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض « أكلة » الكلمات الكبيرة الأمة العربية التى ينتمون إليها والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ، ويقدمون « الأممية » بديلاً عن القومية إنما يخذلون أمتهم المعتدى عليها ، وينتصرون للصهيونية المعتدية . إذ عندما تصبح الأممية بديلاً عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهى الأمر بهم إلى قبول الاحتكام إلى وحدة الموقف من علاقات الإنتاج « بصرف النظر عن الانتماء القومى » فيكون عليهم أن يقبلوا أن يزرع الفلاحون فى إسرائيل أرض الفلاحين العرب ، وأن يحل العمال فى إسرائيل محل العمال العرب ، وأن يكون الفلاحون والعمال فى الأرض المحتلة هم الحلفاء الطبيعيون للذين سلبت منهم الأرض وفرص العمل وأصبحوا مشردين . ولما كان سكان الخيمات عاطلين فإنهم ، إذاً ، الاحتياطى البشرى تحت قيادة « البروليتاريا » الإسرائيلية فى نضالها « الثورى » من أجل الاشتراكية . فهل يقبلون ماتنتهى اليه منطلقاتهم أم هى أخطاء غبية ؟.

النتيجة الثالثة :هى أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بمعنى أنها ليست مشكلة ثائرة فيما بين الدول ، وليست مشكلة ثائرة مابين الأمة العربية من ناحية والمجتمع الدولى من ناحية أخرى . وإذا كانت الدول تتدخل فى مشكلة فلسطين انتصاراً للحق العربى أو دعماً للعدوان الصهيونى فإن الذى يحركها هو مصالحها الخاصة ولو كان السلام العالمى هو مصلحتها الخاصة . وإذا كنا نحن نقيم وزناً للدول ومجتمعها ومصالحها التى تحركها كما نقيم وزناً للسلام العالمى فلأن لنا فى هذا مصالح تحركنا . ذلك لأننا لسنا منعزلين عن الدول ومجتمعها ولانستطيع حتى لو أردنا أن نعزل أنفسنا عن

الدول ومجتمعها . ففى نطاق المجتمع الدولى نواجه حتمية القانون المعروف : « كل شىء مؤثر فى غيره متأثر به » .

ولاشك فى أن مواقف الدول من مشكلة فلسطين تؤثروتتأثر ، إيجابياً وسلبياً ، بأسلوب حلها . وهو مايعنى أن نأخذ من كل دولة ، ومن المجتمع الدولى كله ، الموقف الصحيح ونحن نحاول أن نحل مشكلة فلسطين . ولكن ماهو مقياس صحة الموقف ؟ .... مقياسه أن يكون مساعداً فى حل المشكلة أو أن يكون حلاً لها . وهو مايعنى أن المشكلة الفلسطينية حقيقة نعرفها هى التى تحكم مواقفنا من الدول ومن المجتمع الدولى ، وأن تدخل تلك الدول ومجتمعها الدولى فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين لايغير من حقيقتها التى نعرفها ونلتزمها . إن أرضنا العربية فى فلسطين مغتصبة .

فليكن السلام العالمى هو المثل الذى نضربه ، لأن السلام العالمى غاية مشتركة بين البشر جميعاً . إن الحفاظ على السلام العالمى ـ طبقاً لنظريتنا القومية ـ يتحققُ باحترام الوجود الخاص لكل مجتمع كما هو محدد تاريخياً بصرف النظر عن الأسلوب الذى يقتضيه الحفاظ على السلام العالمى . نريد أن نقول إن استعمال العنف لايعنى ـ دائماً ـ أن ثمة خطرا يهدد السلام العالمى .

وقد يكون العنف رداً للعدوان هو الاسلوب الوحيد لحماية السلام العالمى . فنحن من موقفنا القومى لانصدق ولانفهم ادعاءات السلام التى تتستر على الانتقاص من وجودنا القومى . ونرفض تماماً أن ندفع أرض فلسطين أو أية ذرة من الأرض العربية ثمناً لتلك الادعاءات الكاذبة ، لا لأننا لانريد السلام العالمى ، ولكن لأننا لانفهم السلام العالمى إلا أنه الكف عن الاعتداء واحترام الوجود الخاص لكل المجتمعات البشرية .

إن الدول لن تكف عن محاولات طرح مشكلة فلسطين كما تفهمها على ضوء مصالحها الخاصة ، ولن تكف عن طرحها كمشكلة سلام عالمى صادقة أو مخاتلة ، ولن تكف عن التدخل ، علناً أو خفية ، من موقع التحالف معنا أو التحالف مع الصهيونية أو استغلال الطرفين معاً لتحقق ماتريد . وليس

لنا أن نتوقع غير هذا ، وعلينا أن نجد لحل مشكلتنا الأسلوب الملائم لتحقيق غايتنا وسط كل هذه المؤثرات .

لاشك فى هذا ولا انكار له . ولكن عندما نتزلق إلى طرح مشكلتنا أو قبول طرحها على أنها مشكلة فيما بين الدول الأخرى أو مشكلة السلام العالمى إنما ندفن مشكلة فلسطين تحت ركام الصراعات الدولية . وعندما ندفنها تغيب عنا حقيقتها فلا نعرف كيف نحلها ، ثم يكون علينا أن نقبل الاحتكام إلى الدول لتحكم كل منها على ضوء مصالحها الخاصة ، أو نحتكم إلى مقتضيات السلام العالمى كما يقدرها القادرون على تدميره أو الخائفون من القادرين . وينتهى الأمر بنا إلى دفع أرض فلسطين ثمناً من عندنا ، لا للسلام العالمى ، ولكن لتسوية جزء من حسابات المصالح القائمة بين الدول .

وعندما نعرف أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بالمفهوم الذى ذكرناه ، ولاننسى أنها مشكلة أرض عربية مغتصبة نفلت من شباك التضليل الذى يثيره أدعياء العلم بالقانون الدولى عندما يزعمون أن مشكلة اغتصاب الأرض العربية فى فلسطين قد حلت منذ أن اعترف المجتمع الدولى بدولة اسرائيل وقبلها عضوا فى هيئة الأمم المتحدة . وأنها منذ ذلك الحين قد أصبحت مشكلة سلام بين الدول المتجاورة .

إن فقه القانون الدولى ملىء بالنظريات عن الاعتراف بالدول وطبيعته المنشئة أو المقررة أو المختلطة ، وبآثاره الملزمة فيما بين الدول المعترف بها والدولة أو الدول المعترفة . ولكن ليس فى فقه القانون الدولى ولا فى قواعده ولا فى تطبيقاته مايجعل لاعتراف دولة بدولة ثانية أثراً ملزماً لدولة ثالثة لم تعترف بها . إذ ان القاعدة الأساسية التى يقوم عليها كل بناء القانون الدولى هى أن الدولة لاتلتزم إلا بارادتها الخاصة . فما الذى يعنيه اعتراف كثير من الدول بإسرائيل ؟ ... يعنى أن تلك الدول قد أصبحت ملتزمة بإرادتها بأن تعامل إسرائيل كدولة مادامت قائمة ، ولايعنى شرعية قيام اسرائيل على الأرض العربية المغتصبة لأن القرارات التى تأخذها الدول ، كما يعرف كل الذين يعلمون المبادىء الأولية فى القانون الدولى ، غير قابلة لإحداث أثر مشروع خارج نطاق الاقليم الذى تنصب عليه سيادتها .

ومادامت الدول التى اعترفت بإسرائيل ليست ذات سيادة على اقليم فلسطين فان اعترافها يضفى الشرعية على تعاملها مع إسرائيل ، ولكنه لايضفى الشرعية على دولة اسرائيل ذاتها . لايحول الاغتصاب الى عمل مشروع . ان هذا يقع خارج نطاق مقدرة الدول وهى تمارس سيادتها ، لا لأننا نريد ذلك .ولكن لأن تلك هى أحكام القانون الدولى الذى يحتجون به كثيراً . أكثر من هذا أن الإعتراف بدولة إسرائيل لايتضمن الالتزام بالمحافظة على وجودها . وإلا لكان الاعتراف المشروع دولياً عملية غير مشروعة .

ومن هنا ندرك كم هى زائفة المقولة التى يهمس بها البعض ويهددنا بها الآخرون : مادامت الدول قد اعترفت بوجود إسرائيل فإنها لن تسمح بزوالها أبداً . فيوم أن تزول دولة إسرائيل يصبح الاعتراف السابق بوجودها غير ذى مضمون ويسقط . قد تدافع دولة أو أخرى عن وجود إسرائيل ولكن هذا لن يكون أثراً ملزماً من آثار الاعتراف بها . سيكون حماية لمصالحها أيا كان مضمون تلك المصالح .

إن اعتراف كثير من الدول ، اذاً ، باسرائيل لم يحل مشكلة فلسطين ، ولكنه كان حلاً لمشكلات التعامل بين تلك الدول وبين إسرائيل . وبالتالى فإن المشكلة ، كما هى على حقيقتها ، ماتزال قائمة بالرغم من الاعتراف بدولة إسرائيل .

أما عن هيئة الأمم المتحدة فإن مبادئها الأساسية الواردة فى المواد الأولى من ميثاقها تنكر الشرعية على الاستيلاء على الأرض بالقوة . وعندما قبلت هيئة الأمم المتحدة اسرائيل عضواً فيها ، قبل أن تجف دماء المذابح فى الأرض المغتصبة . لم يكن الأعضاء الذين قبلوا يفعلون شيئاً أقل من خيانة ميثاقها . وخيانة الميثاق ليست ملزمة لمن قبلوا الميثاق .

نريد أن نقول إنه بحكم ميثاق هيئة الأمم ذاتها ليس لأعضائها ولو مجتمعين أن يخالفوا ميثاقها ، وعندما يخالفونه تكون قراراتهم غير مشروعة طبقاً للميثاق ذاته فهى ليست حجة على الدول التى قبلت أن تكون أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة على أساس الالتزام المتبادل بالميثاق . هذا كله بدون حاجة إلى إثارة مالابد أن يعرفه العالمون بميثاق هيئة الأمم المتحدة ، من

الذى وضعه ، وكيف وضع ، وفى أية ظروف دولية وضع ، وماهى المصالح « الحقيقية » التى وضع لحمايتها . وبدون إثارة مايعرفه حتى الذين لايقرأون ولايكتبون من أن هيئة الأمم المتحدة التى قبلت إسرائيل وماتزال ترفض الصين ليست إلا أداة فى يد من يملك القوة فيفرض بها القرارات الدولية .

والغريب أنه بينما يتردد الزعم فى أطراف الأرض جميعاً بأن إسرائيل وجدت لتبقى ، وبأن مشكلة اغتصاب الأرض العربية قد حلت منذ اعتراف المجتمع الدولى بوجود إسرائيل ، يعرف الصهاينة قبل غيرهم أنها ماتزال قائمة لم تحلها اعترافات الدول فيقاتلون منذ سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ . ويتشبثون بالأرض التى احتلوها أخيراً فى مواجهة كل الضغوط الدولية من أجل الاعتراف بوجودهم على الأرض التى اغتصبت أولاً ، من أجل فرض هذا الاعتراف بالقوة على الأمة العربية .

هل تتغير حقيقة مشكلة فلسطين فيما لو اعترفت بإسرائيل إحدى الدول العربية ، أو الدول العربية مجتمعة ، أو شعب فلسطين نفسه ممثلاً بدولة مصنوعة أو بدون دولة ؟ .

أبداً .

وهذا ينقلنا إلى الجانب « الداخلى » من المشكلة كما نفهمها على ضوء نظريتنا القومية .

نعرف أن « المميز الأساسى للأمة عن الجماعات الإنسانية السابقة عليها هو عنصر الأرض الخاصة المشتركة . الخاصة بالجماعة البشرية المعينة دون غيرها من الجماعات الإنسانية الأخرى المشتركة فيما بين الناس فيها » . بقى أن نعرف الموقف القومى من مشكلة فلسطين كما يحدده كون الأرض العربية « مشتركة » فيما بين الشعب العربى ، أنه يحدده من ناحيتين :

الناحية الأولى :لما كانت الأمة العربية تكويناً تاريخياً فان اشتراك الشعب العربى فى الوطن العربى هو مشاركة تاريخية بين الأجيال المتعاقبة . وهذا يعنى أنه ليس من حق الشعب العربى كله ، من الخليج إلى المحيط ، ولو

كان ممثلاً فى دولة الوحدة أن يتنازل عن أرض فلسطين أو يقبل الوجود الصهيونى على الأرض المغتصبة . إنه بهذا يتصرف فيما لايملكه وحده لأنه ملك مشترك بينه وبين الأجيال العربية القادمة . ولو فعل لما كان مايفعله حجة على الأجيال القادمة من الشعب العربى .

الناحية الثانية :أنه لما كانت الأرض العربية شركة بين الشعب العربى فليس من حق أى جزء من الشعب العربى ولو كان شعب فلسطين نفسه أن يتنازل عن أرض فلسطين أو يقبل الوجود الإسرائيلى على الأرض العربية المغتصبة . إنه بهذا يتصرف فيما لايملكه وحده لأنه ملك مشترك بينه وبين باقى شعب الأمة العربية . ولو فعل لما كان مافعله حجة على الشعب العربى .

إن هذه الناحية الثانية أكثر واقعية من الناحية الأولى . إذ ان دولة الوحدة لاتكتمل وجوداً مادامت أرض فلسطين مغتصبة ولو شملت باقى الوطن العربى . وإنما أردنا أن ندفع بالفروض إلى نهايتها لنؤكد بأوضح مايمكن عدم شرعية التنازل عن أرض فلسطين أياً كان الجانب « العربى » المتنازل ، ولو كان جيلاً كاملاً من الشعب العربى تمثله وتنوب عنه دولة واحدة تعترف بالوجود الإسرائيلى على أرض فلسطين .

إن أى جزء من الشعب العربى ممثلاً فى دولته أو الشعب العربى كله ممثلاً فى دولة واحدة ، أو شعب فلسطين ممثلاً فى دولة أو بدون دولة ، يعترف بدولة إسرائيل لن يفعل بهذا شيئاً أكثر من إلزام نفسه بالتعامل معها كدولة ، ولكن مشكلة الأرض المغتصبة ستبقى قائمة يحلها حلها الصحيح باقى الشعب العربى ولو اقتضى الأمر تصفية المعترفين ، أو يحلها حلها الصحيح جيل قادم من الشعب العربى يصحح خيانة جيل سبقه . ولن يستطيع أحد أن يحتج على الذين يتصدون لاسترداد الأرض المغتصبة بالاعتراف الصادر من غيرهم أو بالاعتراف السابق على وجودهم ، لأنهم كشركاء فى الأرض العربية شركة تاريخية غير ملزمين بما فعله أو يفعله شركاؤهم الآخرون .

مشكلة فلسطين ، إذاً ، لن تحل بالاعتراف بدولة إسرائيل يأتى من أى جانب عربى لأنها مشكلة أرض مغتصبة ، لا من أى جيل من الشعب العربى يملكها وحده فيملك التصرف فيها ، ولا من أى جزء من الشعب العربى يملكها وحده فيملك أن يتنازل عنها ، بل مغتصبة من الأمة العربية وأجيالها المتعاقبة . ومن هنا ندرك جسامة خطأين متداولين فى طرح مشكلة فلسطين .

الخطأ الأول :هو الزعم بأن العدوان الصهيونى موجه ضد دولة عربية أو بضع دول عربية ، وبالتالى تكون المشكلة قائمة بين إسرائيل وبين تلك الدولة أو الدول . صحيح أن الصهيونية المعتدية عندما استولت على الأرض العربية كانت الأرض التى اغتصبتها جزءا من إقليم (شبه) الدولة التى كانت قائمة فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى . وعندما اعتدت إسرائيل مرتين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ، ومرات عدة فيما بينهما ، اصطدمت بالدول العربية القائمة على الأرض المعتدى عليها . وأنها ان تتوسع أكثر تصطدم بدول عربية أخرى لم يدركها العدوان بعد . هذا صحيح لأن الأرض التى اغتصبتها الصهيونية أو احتلتها إسرائيل لم تكن خالية من البشر ومن الدول .

وأن الأرض العربية التى حددتها لتكون وطناً لدولة إسرائيل مابين الفرات والنيل ليست خالية من البشر ومن الدول ، ويثير كل هذا مشكلات جديدة مابين إسرائيل والدولة أو الدول العربية المعتدى عليها . مشكلات الاستقلال والأمن وضمان الحدود . وتضاف تلك المشكلات إلى قائمة المشكلات القومية على أساس أن كل مشكلة فى الأمة العربية هى مشكلة قومية . صحيح أيضاً أنه كلما تحرر الشعب العربى فى أية دولة عربية من قيود الاستعمار والاستبداد والاستغلال ، وكلما نمت مقدرة الشعب العربى فى أية دولة عربية على التقدم الاجتماعى ، انتبهت الصهيونية الى المخاطر المقبلة التى تتعرض لها مخططاتها فيما لو سمحت لذلك النمو أن يبلغ غايته . أولاً : لأنه بقدر مايتحرر الشعب العربى بقدر مايستطيع أن يحل مشكلة فلسطين . وثانياً : لأن محاولات التقدم ولو فى ظل الإقليمية لن تلبث أن تعلم الجادين

فعلاً فى ممارسة التنمية أنهم يفتقدون الامكانيات المادية والبشرية الوفيرة المتاحة فى الأمة العربية وأن « التقدم لايقوم على أساس التجزئة » عندئذ يعرفون أن مشكلة فلسطين هى مشكلة تخلف وأن الوجود الإسرائيلى قيد ثقيل على محاولات التقدم الاجتماعى فيواجهون دولة الصهيونية بالإرادة التى لاتهزم : إرادة التقدم الاجتماعى ، وثالثا : لأن التنمية فى ظل التحرر توفر أفضل إمكانيات التحرير ، ومن هنا لايكون غريباً مانلاحظه من أن مشكلة فلسطين تزداد حدة كلما تحققت فى الوطن العربى خطوة تحريرية .

وأن الصراع ضد الصهيونية يصبح أكثر شراسة كلما تحققت خطوة تقدمية . وأن قواها العربية تفرز وتتبلور . رويداً رويداً ، فى القوى القومية التقدمية . ألم نر كيف أنها الآن سنة ١٩٧١ أكثر حدة من سنة ١٩٤٨ . وأن اسرائيل قد أصبحت أكثر شراسة من ذى قبل . وأنها تدخر قوتها الضاربة وتعدها وتستعملها لهدم كل تقدم بناء فى الجمهورية العربية المتحدة ، حيث يعيش ثلث الأمة العربية ، وحيث تقوم أكثر الجهود جدية فى البناء الاجتماعى . ويبدو أن الأمر من تتابع العدوان وتوقيته كما لو كان الاسرائيليون يضعون خطط الهدم على أساس خطط التنمية فى الجمهورية العربية المتحدة . عدوان يهدم ، ثم فترة ليتفرغ فيها الشعب العربى لإعادة البناء ويبذل فى كل هذا مايتجاوز طاقته من تضحيات بشريةومادية ومالية ، وعندما يقارب البناء مرحلة الإثمار ، أى فى تلك اللحظة المنتقاة حيث يكون الشعب العربى على وشك أن يذوق ثمار جهده ، تُختلق الذرائع ويأتى عدوان إسرائيلى جديد ليهدم .. وهكذا .

ألم نر كيف تحول الصراع منذ سنة ١٩٦٧ من معركة تهزم فيها القوات أو تنتصر ثم تنفض إلى سباق حياة أو موت بيننا وبين إسرائيل .ولم تستطع إسرائيل ـ هذه المرة ـ أن تضرب ثم تعود فتسرح قواتها وتعد نفسها لجولة قادمة . بل اضطرت للبقاء فى ساحة المعركة والدفاع حتى الموت عن وجودها بأن تفرض حتى الموت ذلك الوجود والاعتراف به قبل أن تكمل القوى التقدمية فى الوطن العربى مسيرتها التقدمية .

كل هذا صحيح وواقعى .

ولكنـه يقوم على مستوى أسلـوب الصراع الـذى تثيره مشكلة فلسطين . إنهـا مشكلات ولـدتهـا المشكلة الأصليـة ، تنصب مضامينهـا على متطلبـات الصراع وعـدة النصر فيــه . فهـو لايطفى على مشكلـة فلسطين ولايغير من حقيقتهـا ولايقوم بـديلاً عنهـا . ولو كانت إسرائيل تعلم ، أو حتى تتـوهم . أن التقدم الاجتماعى فى أية دولة عربية ، لن يبنى لها من بين مايبنى ، القبر الذى تـدفن فيـه ، لما همهـا فى كثير أو قليل أن تقوم بجوارهـا دولـة نـاميـة تتبادل معها السلع والخدمات والخبرات . أو لما بلغ اهتمامها حد القتـال لهـدم البنـاء التقدمى فى الدول العربية .

إنما هى تهدم لأنها تعلم أن ذلـك البنـاء أحـد أساليب النصر فى الصراع الـذى تثيره مشكلـة فلسطين . وهكـذا تبقى مشكلــة فلسطين ، كما هى ، مشكلــة اغتصاب الأرض العربية بصرف النظر عن الدولة أو الدول التى كانت قائمـة ، والقائمة ، والتى قد تقوم على تلك الأرض . ذلك لأن الأرض التى تقوم عليها الـدول العربيـة ليست أرضـاً خـاصة بتلـك الـدول أو بشعوبهـا . إن للشعب العربى فى كل دولة حقاً مشتركاً بينه وبين باقى الشعب العربى خارج حدودهـا السياسيـة . ومن هنـا لانستطيع أن نفهم ، من الموقف القومى ، كيف يمكن أن يكون اغتصـاب أو احتلال أيـة أرض عربيـة هو مشكلـة « خـاصـة » بين المعتدين وبين الدولة أو الدول العربية التى تلقت ضربـة العـدوان . فلا نفهم أن يكون اغتصـاب الأرض العربيـة سنـة ١٩٤٨ واحتـلال مـزيـد من الأرض والمياه الاقليمية فى سنتى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ومابينهما مشكلات إقليميـة قـائمـة بين إسرائيل والدول العربية « المعنية » كما يقولون .

وعندما لانفهم المشكلات على هذا الوجه الزائف نرفض ـ من نـاحيـة ـ أن تتنـازل أيـة دولـة عربيـة عن أرض فلسطين المغتصبـة سنــة ١٩٤٨ فنعترف بإسرائيل ولو فى مقـابل استردادهـا لـلأرض المحتلـة سنـة ١٩٦٧ . ـ ونرفض ـ من نـاحيـة ثـانيـة ـ أن تتنـازل أيـة دولـة عربيـة عن ذرة من الأرض التى تقـوم عليهـا اسرائيـل ولـو فى مقـابـل استرداد مـايتبقى من أرض محتلــة . ونرفض ـ من نـاحيـة ثـالثـة ـ أن تكـون مسئـوليـة تحرير الأرض المحتلـة والأرض المغتصبــة واقعــة على عـاتـق جـزء من الشعب العربى دون الشعب

العربى كله من المحيط إلى الخليج .كما نرفض أن تساوم بعض الدول العربية على جزء من الوطن العربى لتسترد جزءاً منه ، نرفض أن يهرب جزء من الشعب العربى من المعركة ليتحمل جزء منه مسئولية الأمة العربية كلها .

مشكلة فلسطين إذاً مشكلة قومية وليست مشكلة إقليمية .

وإذا كان الصهاينة وحلفاؤهم يزعمون ولايكفون عن ترديد مزاعمهم بأن مشكلة فلسطين هى مشكلة حدود آمنة واعتراف متبادل بين إسرائيل وجاراتها من الدول العربية ، فذلك مايقوله المعتدون وحلفاؤهم ليكسبوا به جولة الصراع حول وجود إسرائيل ، وليبدأوا بعده مراحل بناء دولة الصهاينة ، حرباً حرباً ، مابين الفرات والنيل .

وعندما نتزلق نحن فننسى أن مشكلة فلسطين هى مشكلة اغتصاب أرض فلسطين (أليس هذا بدهياً ؟ ..) ونطرحها كما لو كانت مشكلة توسع على حساب دولة أو أكثر من الدول العربية نكون قد سلمنا للصهيونية بما اغتصبت من الأرض العربية قبل سنة ١٩٦٧ ، وعندما ينسى الاقليميون الأمة العربية التى ينتمون إليها والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ويرددون كالببغاوات العجماء أن لكل دولة « عربية » شعبها الخاص وأرضها الخاصة وتاريخها الخاص ومصيرها الخاص ... ويناقضون القومية بالإقليمية ، يناقضون الكل بالجزء ، يناقضون الشامل بالحدود ، يناقضون العام بالخاص ، فيفتعلون بكل هذا تناقضات غير قائمة ، إنما يخفون التناقض الحقيقى القائم بين الشعب العربى والوجود الإسرائيلى ، وينتصرون فيه للصهيونية وحلفائها بترديد دعاواهم الزائفة . إذ عندما ينحرفون إلى المواقع الإقليمية ، ويزعمون أن لكل دولة عربية وجوداً ومصيراً خاصاً مستقلاً يواجهون بأن الاستقلال علاقة ذات طرفين . استقلال بالنفس عن الغير .

والغير هنا هو شعب فلسطين وأرضه المغتصبة . ويصبح تدخلهم فى مشكلة فلسطين تجاوزاً لاستقلالهم واعتداء ، أو تطفلاً على استقلال الآخرين يستحق الردع أو يستحق السخرية . ويسخر العالم كله فعلاً من

الذين يدعون أنهم مستقلون بوجودهم ومصيرهم عن فلسطين ثم لايتركون فلسطين لمصيرها . وعندما تطرح مشكلة فلسطين على الذين يرددون المنطلقات الإقليمية لايكون أمامهم إلا الاحتكام إلى القواعد الدولية التى تنظم علاقة الجوار فيما بين الدول : الاعتراف المتبادل ، وتبادل التمثيل السياسى ودعم الصداقة .. أو - على أقل - قبول حماية الدول لحدود دولهم لتضيع أرض فلسطين الواقعة خارج تلك الحدود . فهل يقبلون ماتنتهى إليه منطلقاتهم أم هى أخطاء غبية ؟ .

الخطأ الثانى :المتداول فيما يطرح عن مشكلة فلسطين ليس إلا « تطبيقاً خاصاً » للخطأ الأول . إنه الزعم بأن مشكلة فلسطين هى مشكلة خاصة بشعب فلسطين . يقولون إن شعب فلسطين هو الذى كان يعيش على الأرض المغتصبة . وهو الذى طرد منها . وهو الذى مايزال مشرداً « بدون أرض وبدون هوية » . وهو الذى سيعود إلى الأرض عندما تسترد . فهى مشكلته الخاصة . هل يستطيع أحد أن ينكر أن أغلب الذين كانوا يعيشون على الأرض المغتصبة هم الذين طردوا منها بالأمس . المشردون خارجها اليوم ، العائدون إليها غداً ؟ .. لا أحد . إن احتجوا بالواقع غير المنكور ترسى القومية له أسسه العقائدية « إن وحدة الوجود القومى تعنى اختصاص الشعب بالوطن . ولما كان الشعب امتداداً من البشر على الأرض فإن وحدة الوجود القومى لاتتناقض ولاتلغى ولاتنفى ولاتحول دون إقامة جزءمن الشعب على جزء من الوطن . فتلك هى الممارسة الفعلية التى تجسد وحدة الوجود القومى » . عودة المطرودين المشردين إلى الأرض المغتصبة ليست - إذن - مجرد استرداد للمزارع والمصانع والمتاجر والمنازل ، ليست مجرد عملية إنقاذ لسكان الخيمات ، إنها أكثر من هذا عمقاً وضرورة . إنها الممارسة الفعلية التى تجسد وحدة الوجود القومى .

ومع هذا فليست مشكلة فلسطين مشكلة « خاصة » بشعب فلسطين . إذ ان هذا هو الوجه الثانى من عملة الإقليمية الزائفة فحيث لاتتوافر لهم شجاعة الكشف عن الوجه الخاص بهم ليقولوا إن مشكلة فلسطين ليست مشكلتنا الخاصة ، يكشفون الوجه الآخر فنقرأ « مشكلة فلسطين هى مشكلة

خاصة بشعب فلسطين » ويسترون هذا الخداع بأكثر الصيغ عطفاً على شعب فلسطين : رفع الوصاية عن شعب فلسطين ، عدم التدخل فى شئون شعب فلسطين ، حق تقرير المصير لشعب فلسطين ، الحقوق « القومية » لشعب فلسطين . التحالف مع شعب فلسطين ، بطولة شعب فلسطين ... إلى آخر تلك الصيغ الزائفة مهما تكن عاطفية . إذ ان حصيلتها النهائية أن اذهب شعب فلسطين وربك فقاتلا انا هنا قاعدون .

عندما يصدر هذا كله أو بعضه من الاقليميين الذين لم يطردوا ولم يشردوا من أرض فلسطين ولن يعودوا إليها ولو كانت خالية من إسرائيل يكون مفهوماً تماماً . أنها الإقليمية الهاربة من الصراع من أجل استرداد أرض لاتعتبرها أرضها ، المتطلعة إلى الإفلات من مشكلة لاتعتبرها مشكلتها . والتى لامانع لديها فى كل الحالات أن يقبل المطرودون التعويض بدلاً من العودة . أن يبيعوا أرض الوطن لمن يستطيع أن يدفع الثمن ، ثم تبقى إسرائيل .

أما أن يصدر هذا كله أو بعضه من المطرودين المشردين أنفسهم فذلك أمر غريب مريب . أن يقول . المطرودون المشردون من الأرض المغتصبة إن مشكلة فلسطين هى مشكلة خاصة بشعب فلسطين لايفعلون شيئاً سوى ابتلاع الطعم المسموم الذى ألقته الإقليمية فى أفواههم . ويكون عليهم أن يتمثلوا نتائجه القاتلة حتى النهاية : السماح للاقليميين بالهروب من المعركة . وصد القوميين عن الإسهام فى المعركة ، ومحاولة استرداد الأرض الخاصة بهم من مواقعهم فى الأرض التى تخص غيرهم .

وعندما يواجهون الإقليمية الخاتلة تقول لهم استردوا أرضكم كما تشاءون ولكن لاتمسوا سيادتنا على أرضنا . وتدفعهم بالعطف والخادع أو بالقوة الغاشمة الى أن يقبلوا جزءاً من الأرض المغتصبة ليقيموا عليها « دولة فلسطينية » تكون بمجرد قيامها اعترافاً حياً بدولة إسرائيل .. حينئذ سيشعرون ببرودة الموت الذى دفعتهم اليه الاقليمية . فهل يقبلون ماتنتهى إليه منطلقاتهم أم هى أخطاء غبية .

ليس ثمة أمة تخلو من الخونة . ولكنا لانستطيع أن نسند الخيانة إلى أى عربى لانملك على خيانته دليلاً غير قابل للشك . فقد علمتنا القومية أن

مصيرنا مرتبط بمصير أبناء أمتنا حتى الأغبياء منهم والمخطئين . فلنقل إذن إنهم لايقبلون ماتنتهى اليه منطلقاتهم . كل هؤلاء الذين يشوهون مشكلة فلسطين ، أو أغلبهم ، فيطرحونها كما لو كانت مشكلة دينية ، أو مشكلة نظم اجتماعية ، أو مشكلة دولية ، أو مشكلة اقليمية ... لايقبلون الوجود الإسرائيلى فى فلسطين ويجتهدون ـ بحسن نية ـ لحل مشكلة لم يفهموها فهما قومياً فلم يفهموها فهما صحيحاً ، فتأتى الحلول الخاطئة . إنهم إذن يخذلون أنفسهم وتلك قمة الغباء .

ألا يقولون جميعاً ان مشكلة فلسطين مشكلة « عربية » ويستغيثون بالمائة مليون عربى بدون أن يقولوا إنها مشكلة « قومية » ثم لايفطنون الى أن العروبة التى لاتعنى الانتماء الاجتماعى والمصيرى إلى الأمة العربية هى كلمة « فارغة » من أى مضمون لايقوم عليها التزام بغاية . ألا يقولون انه صراع دينى ولايفطنون إلى أن الوطن العربى هو مصدر الأديان وأن حركة التقدم العربى فى تاريخها الطويل قد جمعت الأديان جميعاً . ألا يتذكرون أن الصهيونية قد اعتدت أولا والنظم العربية عميلة للاستعمار ، واعتدت ثانياً والنظم العربية متحررة ، واعتدت أخيراً والنظم العربية تقدمية ، وفى كل مرة كانت تستهدف الأرض لتخليها من البشر ثم يقولون انه صراع بين النظم الاجتماعية ؟ .. ألا يعرفون أن الدول الاستعمارية هى التى كانت وماتزال تصنع القرارات الدولية ، بالقوة ، ومع ذلك يحتجون بالقرارات الدولية ؟ .. ألا يعلمون أنه عندما وضعت الصهيونية مخططات إقامة دولتها على الأرض العربية واختارت فلسطين بداية فى مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ لم تكن ثمة أية دولة عربية قائمة فى الوطن العربى ، لا فى فلسطين ولا فى غير فلسطين ، بما تعنيه الدولة من سيادة على الأرض ، بل كان الوطن العربى إما جزءا من الدولة العثمانية وإما أجزاء يحتلها المستعمرون الأوروبيون ، ثم يزعمون أن الصهيونية تقصد بالعدوان هذى أو تلك من الدول العربية ..

ألا يرون أن « الممارسة » الفعلية للصراع بين الشعب العربى والحركة الصهيونية حول الأرض المغتصبة فى فلسطين يثبت أن مشكلة فلسطين مشكلة قومية ، فتدخل حلبة الصراع الذى تثيره أجيال متعاقبة من الشعب

العربى ، من كل مكان فى الوطن العربى ، من كل دين ، من كل طبقة ، من كل دولة ، بدون توقف على القرارات الدولية .. ولايسمح الصراع ذاته لأى جيل عربى ، أو أى جزء من الشعب العربى ، أو أية « طبقة » أو أية دولة أن تهرب من حلبته فيقتحم العدوان الصهيونى وآثاره المخربة كل مكان فى الوطن العربى لايمنعه الهرب ولاتصده القرارات الدولية ؟ .. فلماذا هذا الاصرار الغبى على إنكار القومية وهى العلاقة الوحيدة التى تفسر الممارسة وتبررها وتمكننا من النصر فيها فلا تخذلهم ولاتهزم غايتهم إن كانوا ـ حقاً ـ لايقبلون الوجود الإسرائيلى فى فلسطين ؟ ..

إن كان كل هذا غائباً عن « فطنة » الذين يشوهون مشكلة فلسطين ، وعجز الموقف القومى عن أن ينبههم إلى مايخذلون به أنفسهم فلعلهم ينتبهون إليه عندما يعرفون الموقف الصهيونى من مشكلة فلسطين . لعلهم ، إن كانوا عاجزين عن تحديد مواقفهم « عقائديا » من مشكلة فلسطين أن يأخذوا الموقف المضاد لأعدائهم بعد أن يعرفوه ، ولو عرفوه ثم أخذوا منه موقفاً مضاداً لوجدوا أنفسهم فى الموقف القومى وان كانوا قد وصلوا إليه كرد فعل لا كفاعلين .

٣ ـ الموقف الصهيونى :

نشأت الصهيونية فى أوروبا نتيجة عدة عوامل متفاعلة .

أولها :أن « التوراة » التى يتداولها اليهود ، وهى كتاب ظهر لأول مرة فى عهد الملك يوشا بعد وفاة موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثانى ، اصحاح ٢٢) علمت وتعلم اليهود أنهم « شعب الله المختار » ، وتضعهم فى موقع العزلة الممتازة من الشعوب الأخرى .

وتسند التوراة هذا الاختيار الى اعجاب الله بقوة يعقوب ، ولذلك تحدد لليهود مضمون امتيازهم على الآخرين بأنهم أقوى من غيرهم ، ذلك لأن الله قد اختارهم وأسمى يعقوب ، جدهم الأعلى ، باسم « اسرائيل » على أثر مصارعة جسدية قامت بين يعقوب وهو فى طريقه إلى أرض كنعان وبين الله ذاته ، لم يهزم فيها يعقوب فأعجب به الله وباركه واختاره (سفر التكوين

٣٢٢ آية ٢٥ ـ ٢٩) وهكذا استقر فى أذهان أجيال متعاقبة من اليهود « ايمان » بأنهم شعب قوى ممتاز اختاره الله فاختصه برعايته دون البشر أجمعين . وحذره من الاختلاط بالشعوب الأخرى حتى لاتلوث نقاءه . « إنى أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك . لاتقطع معهم أو مع آلهتهم عهداً . لايسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطىء » (سفر الخروج ، اصحاح ٢٣ آية ٢٢ ، ٢٣) . وقد أدت تلك الأساطير القبلية إلى أن أصبحت اليهودية ، بالنسبة إلى المتدينين من اليهود ، تتضمن « عنصرية » مقدسة تجمعهم على عداء « مقدس » للشعوب .

ولم يكف كهنة اليهودية عن تغذيتها بحيث أصبحت القيم اليهودية ذات حدين ، فبينما تفرض على اليهود التزامات وثيقة بالتضامن الاجتماعى فيما بينهم تبيح لهم أن يعاملوا الشعوب الأخرى بدون قيد أخلاقى أو اجتماعى . قال حكماء صهيون : « اضربوهم وهم يضحكون . اسرقوهم وهم لاهون . قيدوا أرجلهم وأنتم راجعون . ادخلوا بيوتهم واهدموها . تسللوا إلى قلوبهم ومزقوها » . أما « يهو » الاله الخاص ببنى اسرائيل فقد وعد شعبه المختار بأن يقوده « إلى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون لم تغرسها» (سفر التثنية اصحاح ٦ آية ١١) .

وتكمل الأساطير البناء الاجتماعى القبلى فتقدم إلى اليهود وحدة الأصل لتؤدى وظيفتها فى التضامن الاجتماعى الداخلى فتقول ان كل اليهود ، فى كل مكان من الأرض ، ومن أى جنس ، وأى لون ، هم سلالة الأسباط الاثنى عشر أبناء يعقوب (إسرائيل) بن اسحاق بن إبراهيم ، ووحدة الرمز (الطوطم) فى جبل صهيون الذى دارت فوقه المصارعة التى أثبتت قوة إسرائيل (يعقوب) التى لاتقهر .

إننا نتعرف فى كل هذا على خصائص الطور القبلى الذى مرت به كل المجتمعات : الاله الخاص ، والأصل الواحد ، والتضامن الداخلى ، والعدوان الخارجى ، وتمجيد القوة . وهو طور كان سائداً فى جميع أنحاء العالم يوم أن ظهرت التوراة لأول مرة فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . وعلى هذا فإن اليهود لم يكونوا بدعة قبلية لا فى تكوينهم ولا فى أساطيرهم يوم أن

كانوا طرفاً فى الصراع القبلى الذى كان يدور فى كل مكان من الأرض والذى انتصروا فيه مرات وانهزموا فيه مرات ثم انتهى بهزيمتهم النهائية عسكرياً . بالغزو الرومانى وفكرياً بظهور المسيحية .

ثم جاءت مرحلة الاستقرار على الأرض بالفتح الإسلامى فدخلت بقايا القبائل اليهودية فى شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط مع غيرها من القبائل والشعوب الأخرى ، مرحلة التكوين القومى وأصبحوا عرباً . ولعل مثل هذا التطور أن يكون قد حدث فى كل مكان عاش فيه اليهود ، إلا أوروبا .

ففى أوروبا عاش اليهود قروناً منعزلين فى أحياء مقصورة عليهم عرفت باسم « الجيتو » حتى نهاية القرون الوسطى . ولم يكن أى « چيتو » الا مجتمعاً قبلياً مغلقاً على أصحابه حبس تطور الجماعات اليهودية فى أوروبا عند الطور القبلى لايتجاوزونه . وكان مرجع ذلك الى أن اليهود فى أوروبا كانوا محاصرين بتعصب كنسى يظن أن له عند اليهود ثأراً قديماً : صلب المسيح . من أجله طردهم فيليب أوجست من مملكته . ومن أجله أمر البابا أنوسنت الثالث بأن يميز اليهود بعلامات توضع على ملابسهم . ومن أجله أحرقت كتب اليهود فى الميادين العامة . وقد يكون وراء كل هذه الأساطير ذلك السلاح الاستغلالى الفتاك الذى يجيده اليهود : الربا .

فبينما كانت الكنيسة تحرم الربا ، كانت اليهودية تأخذ منه موقفها القبلى ، فهى تحرمه فيما بين اليهود وتبيحه إذا كان ضحيته غير يهودى ، وعن طريقه مول اليهود فى أوروبا أمراء الاقطاع فى حروبهم التى لاتنتهى وفى ترفهم الذى لايشبع فسيطروا عليهم وسيطروا على الشعوب من خلالهم وكان رد الفعل تحديد إقامتهم فىأماكن خاصة وتحريم كثير من أنواع النشاط المنتج عليهم .

أيا ما كان الأمر فإن اليهود فى أوربا ظلوا حتى نهاية القرون الوسطى فى الطور القبلى بكل خصائصه التى عرفناها . ثم جاءت الثورة الليبرالية فأطاحت بالتعصب الكنسى . وأنهت قضية الثأر القديم ، بل وأدت ، على

المستوى الديني ذاته ، إلى لقاء بين المسيحية واليهودية في المذهب البروتستنتي ، وتجسد كل هذا في إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية التي حرصت على إلغاء كلمة الدين من أية وثيقة دستورية ، وكانت في كل هذا نموذجاً للثورات التحررية التي عمت أوروبا وأنهت عهد الاقطاع .

وهكذا ، بعد تخلف حضاري طويل ، فتح باب التطور واسعاً أمام اليهود ليغادروا الطور القبلي ويندمجوا في المجتمعات الأوروبية التي يعيشون فيها . وقد غادرته الكثرة الغالبة منهم خاصة في أوروبا الغربية حيث أصبحوا أفراداً عاديين في مجتمعاتهم ، وتخلفت عن الركب الحضاري قلة قبلية متناثرة في أوروبا الشرقية المتخلفة بدورها . وقد كان من الممكن أن ينتهي الأمر بتلك القلة إلى أن تتطور وينتهي عهد العصبية اليهودية لولا أن الليبرالية التي جاءت بالتسامح الديني في ظل « الإخاء والحرية والمساواة » قد جاءت أيضا بالنظام الرأسمالي . بقانون المنافسة الحرة وإطلاق الأفراد من أي التزام من قبل المجتمع الذي ينتمون اليه . ثم بعدم تدخل الدولة في النشاط الفردي على أساس أن « مصلحة المجتمع ستحقق حتما وتلقائياً من خلال تحقيق كل فرد مصلحته » بحكم القانون الطبيعي . وأخيراً بإباحة الكذب والغش والخديعة والتعسف والربا والغبن والإكراه الاقتصادي والأدبي طبقاً للقاعدة القانونية الليبرالية الشهيرة : « القانون لايحمي المغفلين » . فأتاحت الرأسمالية للعنصرية اليهودية المتخلفة أوسع الفرص لتجد - ايجابياً - عداءها القبلي « المقدس » للشعوب بوسائل أصبحت مشروعة في ظل الليبرالية .

وتحول كل « جيتو »إلى وكر تآمر وتخطيط وتعبئة نشيط ومعاد لكل ماهو ليس يهودياً . وانطلقت العنصرية اليهودية بذهنية « المؤمنين » بامتيازهم في مجتمعات يرفضون الانتماء إليها في نظم تبيح لهم الاستغلال ، ليفرضوا سيطرتهم على الشعوب بكل الوسائل . ولم يكن غريباً أن ينتهي كل هذا إلى أن يصبح اليهود في المجتمعات الرأسمالية هم سادة « المال » المسيطرين على أرزاق الناس من خلال البنوك . إن هذا أمر جدير

بالتأمل . لماذا يفضل اليهودى عنصر المال ليكون مجال نشاطه وأداة سيطرته كما لوكان مثله الأعلى هو « تاجر البندقية » ؟ ...

ألأن تلك هى الصنعة التى احتكروها فأتقنوها فى ظل الاقطاع؟ أم لأن عنصر المال هو ، فى التحليل الاخير ، مناط السيطرة فى الاقتصاد الرأسمالى ؟ ...أم لأن « الفائدة » أكثر ضماناً من « الربح » ؟ .. قد يكون السبب واحدا أو أكثر من هذا كله ، وقد يكون هذا كله مجتمعاً فى تقاليد « حرفية » كما كان الأمر بالنسبة إلى الصناعات الأخرى فى ظل الاقطاع حيث تتجمع كل طائفة من الناس حول « حرفة » واحدة يحتكرونها ويتوارثونها ، ولكنه ما بقى بعد انقضاء عهد الحرفيين إلا لأنه يتفق مع العنصرية القبلية الموروثة ،ذلك لأن النظام الرأسمالى فى نشأته كان نظاماً تقدمياً بالنسبة إلى النظام الاقطاعى الذى كان سائداً فى أوروبا من قبله .

وقد استطاعت الرأسمالية أن تحول المجتمعات الأوروبية الزراعية إلى مجتمعات صناعية وأن ترسى أسس حضارة مادية وعلمية معاً حققت قدراً من التقدم الاجتماعى يمثل الجانب الإيجابى البناء من آثارها . ويبدو أن الخلفية المعادية للشعوب التى كانت ثمرة الجمود العنصرى الذى تربت عليه أجيال متعاقبة من اليهود فى أوروبا ، حالت دون أن يجد اليهود فى البناء الاقتصادى وما يصاحبه من تقدم اجتماعى ما « يغريهم »

فاختاروا البنوك كأدوات للسيطرة على المجتمعات ولم يختاروا « المصانع » لأنها أدوات البناء الاجتماعى . وسيختارون بعد ذلك الصحافة والإعلام عندما تصبح أدوات للسيطرة وسيختارون الإرهاب المسلح ويتقنون إستعماله كما أتقنوا استعمال المال والصحافة والإعلام فى المجتمعات التى عاشوا فيها . كل ذلك لسبب بسيط هو أنهم لا يعتبرون تلك مجتمعاتهم ليسهموا فى بنائها بل يعتبرونها أعداءهم فعليهم بأمر « يهو » أن يسيطروا عليها أو يخربوها . ان هذا يفسر ـ فيما نعتقد ـ الصورة الاوروبية لليهودى الجبان الذليل الخائن .

وليس الجبن وقبول المذلة والخيانة لصيقة بأى دين وعلى وجه خاص ليست واجباً دينياً على اليهود الذين يعلمهم دينهم الشراسة ويمجد العدوان ويقيم امتيازهم على القوة الجسدية التى من أجلها اصطفاهم الله شعباً مختاراً . إنما كان الجبن والخيانة وقبول المذلة تعبيراً عن رفض اليهودى مخاطر المغامرة الإيجابية وضريبة الوطنية من أجل المجتمع المرفوض أصلاً . وكان قبول المذلة تحايلاً على المجتمع الأقوى « قيدوا أرجلهم وأنتم راكعون » . باختصار يلتزم اليهودى قيمه القبلية الخاصة ويرفض الالتزام بقيم المجتمع الذى يعيش فيه فيبدو شاذاً فى مجتمعه لأنه يرفض الأندماج فيه . ولا يرى هو فى موقفه شذوذاً لأن الانعزال عن « الغرباء » والعداء لهم فضيلة قبلية .

على أى حال ، عندما انتبهت الشعوب الأوروبية إلى الإستغلال الرأسمالى الذى ابتلع أو كاد المكاسب التى كانت مأمولة من وراء ثورات التحرر من الاقطاع والتفتت إلى تلك « الطائفة القبلية » التى تقاوم التطور الحضارى وتجسد الكراهية والاحتقار لكل من لا ينتمى إليها ، وتتآمر خفية فتصنع لها لغات خاصة لا يعرفها غيرها (البيدش فى شرق أوروبا وهى مشتقة من الألمانية واللادنيو فى غرب أوربا وهى مشتقة من الأسبانية) ، وقبل هذا وفوقه تمول النظام الرأسمالى وتدير حركته الاستغلالية من مقاعدها فى البنوك . وكان للمستغلين الرأسماليين من غير اليهود مصلحة لا شك فيها فى أن يوجهوا غضب الجماهير المقهورة بعيدا عن النظام الرأسمالى الاستغلالى فأشتركوا بوسائل شتى فى تركيز الانتباه على العنصرية اليهودية ، وحملوها وحدها مسئولية الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى الذى تعانيه الشعوب ، حتى تخرج الرأسمالية بريئة .

وهكذا تعاظمت موجة كراهية اليهود واحتقارهم واضطهادهم التى عرفت باسم « معاداة السامية » . أما لماذا السامية مع أن يهود أوروبا ليسوا ساميين ، فلأنهم لو أسموها اسما « معاداة اليهودية » لفضحت دعاوى التحررية والعلمية التى تروجها الرأسمالية المنافقة . وهكذا تمت مشكلة

اليهود فى أوروبا من بذور عنصرية طائفية متخلفة تغذت من عفن الرأسمالية المستغلة .

ولم يكن حل المشكلة خافيا حتى على الأغلبية الساحقة من اليهود الذين تحرروا من البداوة القبلية واندمجوا فى مجتمعاتهم . فقد كان الحل يقتضى أن تتحرر الأقلية اليهودية من أساطير الخرافية وأن تتجاوز الطور القبلى لتندمج فى المجتمعات التى تعيش فيها كما فعلت الأكثرية . وكانت الاشتراكية المطروحة أفكارها بقوة خلال القرن التاسع عشر تمثل الأمل الاجتماعى الذى تنتهى به ، وإلى الأبد ، كل أنواع القهر . كان ذلك هو الحل التقدمى لمشكلة اليهود فى أوروبا ومشكلة المجتمعات الاوروبية بما فيها من يهود . وضد هذا الحل بالذات تحالفت أقلية يهودية متخلفة تقاوم حركة التطور وتتحالف مع الرأسمالية الاستعمارية التى تستغل البشر جميعا بما فيهم الأقليات المتخلفة .

وشهد عام ١٨٩٧ مولد منظمتين من العنصريين اليهود . كل منهما منظمة « صهيونية » . ستحاول المنظمة الأولى افساد حل المشكلة اشتراكيا فتفشل . ينجح الحل ويهرب العنصريون . وتقوم الثانية بالتحالف مع القوى الاستعمارية فتنجح إلى حين فتقوم فى الارض العربية دولة عنصرية فى سنة ١٩٤٨ .

أما المنظمة الأولى فهى « الاتحاد العام للعمال اليهود فى روسيا وبولندة » (البوند) . ويلاحظ منذ البداية أنها منظمة لليهود دون غيرهم فى كل من روسيا وبولندة أى بدون اعتداد بالانتماء القومى لأى من الأمتين الروسية والبولندية لأنها تعتبر أن « اليهودية » رابطة ثالثة وذلك هو مميزها العنصرى . ومن ناحية ثانية أنها منظمة عمالية تستهدف الاشتراكية ، وقد أصبحت جزءا من « حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى » القائم على منظمات فكرية ماركسية . فقد تشكل « البوند » سنة ١٨٩٧ كواحد من المنظمات العديدة التى كانت تكون ما عرف باسم الحركة الاشتراكية الديمقراطية فى شرق أوروبا . وقد اجتمعت تلك المنظمات فى منسك سنة ١٨٩٨ واتفقت على أن تتوحد فى « حزب العمل الاشتراكى الديمقراطى

الروسى » الذى تم انتشاؤه فعلا فى المؤتمر الثانى (التأسيسى) الذى انعقد فى بروكسل ثم فى لندن سنة ١٩٠٣ .

وفى ذلك المؤتمر التأسيسى اقترح ممثلو « البوند » أن يكون هو الممثل « للبروليتاريا » اليهودية داخل إطار « حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى » الذى يجب أن يقوم على أساس فيدرالى . ولم يقبل المؤتمر رأيهم استنادا إلى أن « الفيدرالية » تضعف قوة الحزب المركزية فانسحب ممثلو « البوند » من المؤتمر ، وحدث الانشقاق بين البلشفيك والمنشفيك ، ولكن البوند . والبلشفيك ، والمنشفيك ، كلهم بقوا اعضاء فى الحزب حتى المؤتمر الرابع (التويدى) الذى انعقد فى استوكهولم سنة ١٩٠٦ . وفيه حصل « البوند » على اعتراف الحزب بوضعه الخاص كممثل للماركسيين اليهود . فى ذلك الوقت كان الحزب يضم عديدا من المنظمات و « الشلل » التى تتنازع المعرفة بالماركسية وتمثيل الطبقة العاملة ، وكان « البوند » واحدا منهم ، ولم يكن البلاشفة بزعامة لينين الا شلة أخرى لم تنتصر بعد فى الصراع الأيديولوجى الذى كان ثائرا فيما بينهم ودار أغلبة حول ما عرف باسم « المسألة القومية » ولما لم تكن ثمة « نظرية ماركسية فى القومية » . وكان الأمر متروكا للاجتهاد من خلال الممارسة لم يجد الماركسيون تناقضا بين أن يكون اليهود عنصريين وماركسيين معا . ولقد كانت الممارسة سنة ١٩٠٦ تقتضى وحدة كل الماركسيين والاشتراكيين لأن الثورة ضد القيصرية كانت قد بدأت سنة ١٩٠٥ لتنتهى بالفشل سنة ١٩٠٧ . ولقد شن النظام القيصرى ، بعد فشل الثورة ، حرب إبادة وحشية ضد كل الذين حرضوا عليها أو قادوها أو اسهموا فيها أو رحبوا بها . وكانت مجزرة . هاجر على أثرها جانب كبير من اليهود كما هاجر لينين نفسه ثم يعود لينين سنة ١٩١٧ ليقود الثورة مرة أخرى وينجح . ويخوض الماركسيون ابتداء من سنة ١٩١٧ حربا أهلية شرسة ضد الثورة المضادة فتهاجر دفعة أخرى من اليهود « الاشتراكيين » . أولئك الذين قدموا لنا أمثال ويزمان وبن جوريون وشاريت .

ولنا هنا ثلاث ملحوظات . الأولى ما قيل من أن حرب الإبادة التى

شنها القيصر بعد فشل ثورة ١٩٠٥ كانت موجهة ضد اليهود لأن القيصر كان من أعداء السامية ، وهو غير صحيح . فقد كانت ثورة مضادة لتصفية قوى ثورة ١٩٠٥ ولم يكن اليهود ولا « البوند » نفسه هم القوى الأساسية أو الوحيدة فى ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . الملحوظة الثانية أن كل القوى التى هاجرت بعد فشل الثورة أو نفيت إلى مجاهل سيبيريا لم تتوقف عن الكفاح ، ولم تلبث أن اجتمعت فى ساحة ثورة ١٩١٧ المنتصرة ، إلا العنصريون اليهود من أعضاء البوند . فما أن غادروا أرض « الوطن » حتى نسوا الماركسية والاشتراكية والطبقة العاملة وتحالفوا مع القوى الاستعمارية . الملحوظة الثالثة أن الكثرة من اليهود المتحررين من العنصرية الذين بقوا فى الاتحاد السوفيتى بعد نجاح الثورة وأسهموا فى بناء الاشتراكية قد اندمجوا فى مجتمعهم بيسر ذى دلالة قوية على أن مشكلة اليهود فى اوروبا هى مشكلة العنصرية والاستغلال وليست مشكلة افتقادا ارض يعيش عليها اليهود . فما أن يتحرر اليهود من التخلف القبلى ويتحرر المجتمع من الاستغلال الرأسمالى حتى تنتهى المشكلة . وليس أدل على هذا من ان الاتحاد السوفيتى يضم جمهورية خاصة باليهود(بيروبيجان) لم تعد عنصرية . يقيم غير اليهود فيها كما يقيم اليهود فى كل مكان من الاتحاد السوفيتى بدون أن توجد مشكلة .

وهكذا أفسدت العنصرية اليهودية على أصحابها أفضل الحلول التى قدمتها أوروبا لمشكلة اليهود . كيف إذاً كان العنصريون اليهود ماركسيين واشتراكيين ، وكيف أنهم فى الأرض المغتصبة يقيمون المزارع الجماعية ، ويعيشون فى جماعات متماسكة ، وينتهجون الأسلوب الجماعى فى الإنتاج ؟ ... كيف يتفق أن يكونوا عنصريين ما يزالون فى مرحلة الطور القبلى وهم ـ فيما يبدو ـ ماركسيون أو اشتراكيون ؟ ...

هذه هى الخدعة التى لا يمكن اكتشافها من منطق مادى على ضوء تطور أساليب الإنتاج ، ولكنها تصبح واضحة إذا نظرنا إليها من منطلق إنسانى قومى « ينظر إلى المجتمع خلال حركتها الجدلية التى لاتتوقف من الماضى إلى

المستقبل » . أن بين المجتمع القبلى العنصرى اليهودى والمجتمع الاشتراكى تقاربا فى أسلوب الإنتاج الجماعى . ولكن علاقات الإنتاج الجماعى مرتبطة بالطور الذى يمر به المجتمع ولا تكون تقدمية بذاتها .

والماركسيون أول من يجب أن يعرفوا هذا فعندهم يبدأ التطور الاجتماعى بالشيوعية الأولى وهى أكثر مراحله انحطاطا ، وينتهى بالشيوعية الأخيرة وهى أكثر مراحله تقدما . وفى كليهما تتشابه علاقات الإنتاج الحالية من الملكية الخاصة ومع ذلك لاينخدع أحد فى الفارق الحضارى بينهما . فإذا كان اليهود فى الأرض المغتصبة يقيمون المزارع الجماعية ويعيشون فى جماعات متماسكة فلأن أسلوب الإنتاج الجماعى هو أسلوب الإنتاج القبلى .

ويمكن التمييز بين ما إذا كان أسلوباً قبلياً أو أسلوباً اشتراكياً من خلال موقف أصحابه من المجتمعات الأخرى . فعندما يكون مصحوبا بالانغلاق الداخلى والعداء للغير يكون أسلوبا قبليا متخلفا حتى عن أسلوب الإنتاج الفردى ، وعندما يكون إنسانيا سليما فهو متجاوز أسلوب الإنتاج الفردى إلى الأسلوب الجماعى الاشتراكى . طبقا لهذا المقياس لا نكون فى شك من حقيقة العلاقات الجماعية السائدة فى الأرض المغتصبة ، إنها القبائل اليهودية قد انتقلت من « الجيتو »إلى أرض فلسطين لتعيش ذات علاقاتها القبلية المتخلفة : التضامن بين أفراد القبيلة والعداء للآخرين . والكابوتز المسلح هو القبيلة التى ما تزال تعيش فى القرن العشرين .

وفى افريقيا آلاف من هذه الجماعات القبلية تعيش معا حياة أكثر جماعية من اليهود فى فلسطين ولا يقول أحد بأنها مجتمعات اشتراكية . ولا يغير من هذا أن المجتمع القبلى فى إسرائيل يستعمل أرقى أدوات الإنتاج تطورا فى هذا الزمان . فمن قبل تعلمت قبائل الهنود الحمر استعمال أرقى أدوات القتال فى زمانها ومع ذلك ظلت فى طورها القبلى . وتستعمل كل الشعوب ـ الآن ـ أدوات إنتاج متشابهة فى تقدمها الفنى ومع ذلك تختلف حضارة وتطورا . لأن « كما يكون الناس يكون تطورهم الاجتماعى » (فقرة ١٨) . ثم ان « التفرقة العنصرية » المعترف بوجودها فى مجتمعات تبلغ فيها أدوات

الإنتاج أرقى ما وصل إليه العلم ليست إلا المميز القبلى للمجتمعات التى تعيش فى ذلك الطور المتخلف ، وتستعمل أدوات القرن العشرين .

إن الجماعية - إذاً - هى التى كانت تغرى كثيرا من العنصريين اليهود باعتناق الماركسية ، ولكن الماركسية ليست عنصرية . وعندما تتستر العنصرية بالماركسية يكون على كل ماركسى أن ينظر إلى المجتمعات نظرة أشمل من أدوات الإنتاج وعلاقاته ، عندئذ سيتبين بوضوح أن العنصريين فى الأرض العربية المغتصبة يعيشون فى الطور الاجتماعى اللاحق للشيوعية البدائية وليس الطور الاجتماعى السابق على الشيوعية الأخيرة . وأنهم - بالتالى - عندما يتطورون سيدخلون الطور الرأسمالى . ويقدم تطورهم منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن دليلا واضحا على أنهم يدخلون مرحلة الفردية . وآيتها الكثرة غير المتناسبة مع عددهم من الأحزاب وهو ما نلاحظه فى مراحل الليبرالية الأولى - ويدخلون مرحلة الرأسمالية ، وآيتها التحالف الذى يزداد يوما بعد يوم مع الرأسمالية الغربية وهذا لا ينفى أن جماعات من الرأسماليين المتحررين من القبلية اليهودية تعيش فى إسرائيل أو تحالف الصهاينة خاصة منذ أن أصبحت لهم دولة لتستغل العنصرية الصهيونية ودولتها معا . ولكن أن يكون فى الأرض المغتصبة عنصرى واشتراكى معا . أو أن يعيش الاشتراكيون فى ظل الروابط القبلية التى نسجتها الأساطير والخرافات ، فتلك مقولة لا تستحق إلا السخرية .

المهم أن الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى قدمت للعنصريين اليهود أفضل الحلول التقدمية ليغادروا الطور القبلى . قدمت لهم الأرض والأمن وفرص الإنتاج وعدالة التوزيع . فرفضوها . لماذا ؟

هنا يأتى دور المنظمة الثانية التى ولدت عام ١٨٩٧ أيضا ، وتحالفت مع القوى الاستعمارية . إنها المنظمة « الصهيونية » التى تأسست فى مؤتمر بال وحددت هدفها بأنه إقامة دولة لليهود فى فلسطين ، وجمعت العنصريين اليهود فى أوروبا الغربية . وهى المنظمة التى سينضم إليها أصحاب تجربة « البوند » والتى ستحقق نجاحا مطردا فى مخططاتها فتقيم دولة إسرائيل فى

سنة ١٩٤٨ . إنها المنظمة التى جمعت شتات « القبائل » اليهودية لتقيم منهم دولة قبلية على أرض فلسطين .

وأول سؤال تطرحه تلك المنظمة علينا هو لماذا نجحت ؟ .. وقبل أن نجيب ينبغى أن نذكر أن المجتمعات الأوروبية بالرغم من تقدمها ماتزال عامرة بالجماعات المتخلفة التى لم تتجاوز الطور القبلى . لنضرب قبائل الغجر مثلا . بل نضرب مثلا قبائل اللابيين الذين يعيشون فى السويد والنرويج وفنلندا وروسيا . إن هذه ظاهرة متكررة فى كل الأمم ولنا منها نصيب لاينكر . ومصير كل هذه الجماعات المتخلفة أن تدرك تطور مجتمعاتها . إذن ، فمها تكن أساطير العنصرية اليهودية كان التطور الاجتماعى فى أوروبا كفيلا فى النهاية بأن ينتزعها من روابطها القبلية لتلحق بمجتمعاتها . لولا أن « قوى » أخرى كان لديها دور تبحث له عمن يؤديه . تلك هى القوى الاستعمارية .

ففى أواخر القرن التاسع عشر كان الاستعماريون قد استولوا على العالم كله بدأت مهمة المحافظة على مواقعهم فيه . ومن أجل هذا انعقد فى لندن سنة ١٩٠٧ مؤتمر استعمارى ليوصى بما يراه كفيلا بالمحافظة على السيطرة الاستعمارية . وقد قدم عدة توصيات ، كان نصيب الوطن العربى منها ما يلى : « إن إقامة حاجز بشرى وقريب على الجسر البرى الذى يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطها معا بالبحر الأبيض المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة على مقربة من قناة السويس قوة معادية لشعب المنطقة ، وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها هو التنفيذ العملى للوسائل والسبل المقترحة » .

وفى سنة ١٩٣٧ نشر فى فرنسا كتاب تحت عنوان « الله أكبر » يتضمن تقريرا كان مقدما إلى أحد قادة الحركة الصهيونية فى النمسا هو الدكتور فولفجانج فايست يقول كاتبه : « إن خلاصة الأسباب الجدية للكفاح من أجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجى وتأثيره فى مستقبل المنطقة . فلو عادت فلسطين إلى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربية مسلحة

تستطيع أن تتحكم فى قناة السويس والطريق إلى الهند . أما إذا ظلت فلسطين مستقلة ، أو أصبحت دولة يهودية ، فإنها ستقوم عقبة فى سبيل إنشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دول عربية وأخرى على جانبى فلسطين - إن دولة صغيرة « حاجزة » تقوم على ١٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع على ضفتى نهر الأردن ستحمى كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربية أخرى ... إن توازن القوى حول قناة السويس يتوقف إذن على استقلال فلسطين عن العالم العربى . يتوقف على دولة فى فلسطين تكون مثل سويسرا عند ملتقى القارات الثلاث .

إن هذا الاستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودى ، ذلك لأن اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصلحة فى هذا الاستقلال وليس العرب ، إذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج فى دولة عربية كبرى . وهكذا حالت القوى الاستعمارية دون أن تذوب العنصرية اليهودية فى حركةو التطور الاجتماعى فى أوروبا . وغذت تلك العنصرية بأدوات القوة ، وسهلت لها أن تغتصب أرض فلسطين لتكون هناك حارسة لقناة السويس وحائلة دون الوحدة العربية . وضمت صفحات التاريخ اكبر كذبة شهدها التاريخ ، اليهود يغتصبون أرض فلسطين فرارا من اضطهاد الدول الأوروبية ولكن بمساعدة الدول الأوروبية وخدمة لمصالحها .. ابعد ما يكون عن الحقيقة إذن أن يقال إن اليهود ما جاءوا إلى فلسطين إلا لأنهم يفتقدون وطنا يعيشون فيه . إنما جاءوا ليغتصبوا الأرض العربية ويقيموا دولة حارسة للمصالح الاستعمارية تحول دون أن تحقق الامة العربية كل ما هى قادرة عليه من تطور اجتماعى فى ظل دولة الوحدة . جاءوا بمساعدة القوى التى لا تريد لهذا الشعب العربى أن يعيش بما يملك . لم يجيئوا لأنهم يهود . ولا لأنهم اشتراكيون ، ولا لأنهم يريدون الاعتداء على دولة عربية معينة ، ولا لأن المجتمع الدولى كان فى حاجة - حتى يسود قانونه - إلى وجودهم فى فلسطين ، بل ليقيموا على الارض العربية مخفرا مسلحا يكرس تخلفها ويمنع وحدتها .

هذه هى الصهيونية كما نراها من الموقف القومى وطبقا لنظريتنا القومية ، ولو كنا استوعبنا نظريتنا هذى لأدركنا من أبعاد مشكلة فلسطين ومخاطرها المقبلة أكثر مما يدرك سوانا . إنها نذر على أكبر قدر من الجدية تنذرنا بها نظريتنا القومية التى علمتنا ان الامة تدخل مرحلة التكوين القومى باستقرار الجماعات القبلية (تحمل كل منها لغتها وثقافتها وتقاليدها) على أرض معينة ومشتركة وبها تحل مشكلة الهجرة وتتميز بالاستقرار على الأرض عن الطور القبلى . ثم تبدأ فى التكوين وتحدد خصائصها خلال مواجهة المشكلات المشتركة والمشاركة فى حلها . إذن . ولينتبه الشباب العربى .

إن الصهيونية تحاول منذ ١٩٤٨ أن « تصنع أمة » من أشتاتها القبلية بأن تستحوذ على أرض تكون خاصة بها . ولابد لكى تنجح من أن « تستقر » على الأرض « وتختص » بها فترة زمانية كافية تبنى فيها حضارتها الخاصة وتصبح بها أمة ،. وقد كان عام ١٩٤٨ هو البداية ولكن الزمان أمامهم ما يزال طويلا ، فإن الأمم لا تتكون فى عشرات السنين فلا نجزع .

ان الولايات المتحدة الامريكية ذاتها ما تزال ، منذ الاستقلال ، أمة فى دور التكوين ولكن الصهاينة دائبون على تنفيذ مخططاتهم ، ولقد اغتصبوا الأرض ولكن لم يستقروا عليها . وعلى أرضها يعيش ثلاثة أرباع مليون عربى وأكثر فهى ليست خاصة بهم داخليا ، وقد قطعت معركة ١٩٦٧ كل استقرار سابق .ولكنهم على أى حال استطاعوا أن يحيوا لغتهم الميتة فأصبحت لهم لغة مشتركة . ولو سمح الشعب العربى للصهاينة بالاستقرار على الأرض حتى تكون خاصة بهم ويبنوا عليها حضارة خاصة ، فأنهم سيصبحون أمة ، شاء الشعب العربى أم لم يشأ ، لأن فعالية قوانين التطور حتمية ولا تتوقف على رغبات أحد ، والماضى يمتد تلقائيا فى المستقبل إذا لم يتدخل الناس إيجابيا لتغييره . ويوم أن يصبح للصهاينة أمة فى فلسطين لن يستطيع أحد أن ينتزعها منهم مرة أخرى . لعل هذا أن يكون واضحا . فإنه

يحدد لنا التزامات عينية داخل الأرض المغتصبة وخارجها حتى قبل أن تزول دولة إسرائيل هذا ما نقوله نحن .

فماذا تقول الصهيونية عن نفسها ؟ .

إذا كنا سنعود إلى الأساطير الخرافية مرة أخرى فلعل هذا لا يصدم المعجبين « بالتقدم الحضارى » لإسرائيل ذلك لأننا لا نسند إلى الصهاينة غير مايقولون . ولا نستند من بين مايقولون إلا إلى الصهاينة العلماء ، الماديين ، الذين لا نظن أنهم يرعون شرائع الدين اليهودى . إنهم - كما لايد نتوقع - لا يقولون إن الصهيونية حركة عنصرية قبلية متخلفة . بل يقولون إنها حركة قومية . والصهيونية هى ذاتها القومية . أما الأمة فهم اليهود فى كل أنحاء الأرض ومن جميع الأجناس والألوان . ثم أنهم لا ينكرون أن ليس لليهود لغة واحدة وأنهم لم يعيشوا منذ عشرات القرون على أرض واحدة ، ولم يشتركوا فى بناء حضارى واحد كل هذا لا ينكرونه . ولكنه عندهم غير لازم لتكون الأمة أمة .

فالنظرية الصهيونية فى الأمة القومية تقوم على أساس أن وحدة الثقافة ، والتاريخ الثقافى هو المميز الاساسى للأمة . فإذا قبل أن اليهود المثقفين قد شاركوا فى كل ثقافات العالم . وكل منهم أسهم بقدر ما استطاع فى ثقافة مجتمعه الذى يعيش فيه . قالوا إن العبرة بالاتصال التاريخى للثقافة وهذا متوافر فى الثقافة الدينية لليهود منذ الشتات إلى الآن ، فهم - إذن - أمةهل هى أمة ممتازة ؟ .. لا . ان تعبير « شعب الله المختار » هو للتمييز وليس للامتياز . فليكن . فليس لكل هذا عنصر آثار فيما يعنينا فى هذا الحديث . إذ أن الذى يعنينا هو عنصر الأرض . إن كنتم أمة الآن . وكنتم دائما أمة . وأنتم تعيشون فعلا على الأرض وسط مجتمعاتكم فلماذا تتركون « أوطانكم » ؟ .. لأن تلك المجتمعات لم تقبلنا قط . إنها رفضت انتماءنا إليها وما تزال ترفض وقد تعرضنا فى تاريخنا الطويل لكل أنواع الاضطهاد الظاهر وما يزال هذا الاضطهاد مستترا . حتى الذين اندمجوا - كما يقال - فى مجتمعاتهم يشعرون بالغربة ، وإذا كانوا يرفضون الانتماء علنا إلى الحركة

القومية (الصهيونية) فلأنهم يخشون أن ينفجر العداء الكامن ضدهم فهم يساعدونها خفية أو علنا تبعا للظروف . وإذا كانت الحركة الصهيونية لا تضم إلا القلة من اليهود فلأن تلك هى القلة الواعية انتماءها القومى فهى الطليعة المنظمة التى تقود الحركة القومية . وآجلا أو عاجلا ، سينضم إليها كل اليهود . إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تقاومون الاضطهاد فى مجتمعاتكم ولو بالتحالف مع باقى المضطهدين هناك بدلا من الفرار ؟ .. لا فائدة أن الحل الوحيد أن تكون لنا أرض خاصة نقيم عليها مجتمعنا ونعيش فيها حياتنا . لماذا إذن لم تقبلوا الأقامة فى الأرض الخالية التى عرضت عليكم فى أوغندا ؟ ... لأننا نريد أرض فلسطين .

لماذا فلسطين بالذات ؟ ..

هنا يعود المثقفون العلماء المتحضرون ، الماديون ، التقدميون إلى الأساطير . إننا نلخص ما قالته نخبة مختارة من هؤلاء جميعا ونشره سارتر فى عدد خاص (٩٩١ صفحة) من مجلة « الأزمنة الحديثة » فى يونيو سنة ١٩٦٧ ، قالوا إن الثقافة اليهودية التى هى مناط التكوين القومى للأمة اليهودية قائمة على عدة اساطير دينية وميتافيزيقية . هذا صحيح - ولسنا نحتج بصحتها العلمية . وإنما نحتج بالآثار الاجتماعية التى أحدثتها تلك الأساطير فى الجماهير اليهودية ، وصاغت بها تكوينها الاجتماعى . فمثلا تلقى اليهود من الله وعدا بأن تكون لهم أرض فلسطين . هكذا جاء فى التوراة «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر التكوين ، اصحاح ١٥ . آية ١٨) . ومنذ ذلك الحين انقضت القرون . لاننكر أننا خلالها لم نكن نعيش على أرض فلسطين ، وأن شعباً عربياً هو الذى كان يعيش عليها . ولكن هذا لايغير من الواقع شيئا .

والواقع أنه طوال القرون يعيش اليهود فى الشتات على أمل العودة إلى أرض « الميعاد » كأثر من آثار إيمانهم الدينى بأن تلك هى الأرض التى وعدهم الله بها . وبصرف النظر عن الجانب اللاهوتى فإن الأثر الاجتماعى كان وما يزال قائما يصوغ حياة اليهود نفسيا واجتماعيا ويرددونه فى اجتماعاتهم وفى

صلواتهم ويذكرون به فى كتبهم ويقوم محورا فى ثقافتهم القومية : إن أرضنا تمتد من الفرات إلى النيل هى أرضهم . هذا هو الذى أبقاهم أمة لم يذوبوا فى الأمم الأخرى بالرغم من توالى الأجيال وهم فى الشتات . وهذا هو الجانب المهم ومن الاسطورة لأننا قد نكذب الاسطورة ولكنا لانستطيع أن ننكر أو نتجاهل أثرها الاجتماعى . وقد أخذ علينا الناس ما قاله بعضنا من أن فلسطين أرض بلا شعب فلابد من أن تعطى لشعب بلا أرض .

ولو فهمونا لما أخذوا علينا ما نقول . فالعبرة عندنا ليست بالصلة المادية التى تتمثل فى إقامة شعب « غريب » فى أرضنا ، ولكن العبرة بالصلة الروحية بيننا وبين الأرض . ومهما تكن الأرض عامرة بمن يقيم فيها فإنها خالية بالنسبة إلينا إلى أن نعود إليها نحن أصحابها .

إن تلك الصلة لم تنقطع أبدا فلم ينس أى يهودى أرض فلسطين والعودة إليها . ولا يقال لنا إن ذلك إيجابا ذاتيا من ناحيتنا فإن القبول الذى تتم به الصلة قد جاء من الأرض ذاتها . فلو راجعنا التاريخ لتبين لنا على وجه لا يمكن إنكاره حتى لو لم يستطع العلم اثباته أن أرض فلسطين لم تمنح كل عطائها إلا لنا نحن اليهود الموعودين بها .

وهكذا لن تستطيع الأمة اليهودية أن تسهم بكل ما هى قادرة عليه فى التقدم الحضارى إلا على أرض فلسطين . ولا تغنى عنها أرض أخرى . كما أن أرض فلسطين لن تقدم كل ما تنطوى عليه من عطاء إلا للشعب اليهودى . ولا يغنى عنه شعب آخر . إنما تثور المشكلة لأن الدول العربية لا تريد أن تقبل المهاجرين من أرضنا فى أراضيها الواسعة التى هى فى أشد حاجة إلى مزيد من البشر . وبدلا من هذا تبقى عليهم فى الخيمات ، وتستعملهم « كورقة سياسية » فى مناوأة دولتنا لأنها لا تريد أن تعترف بوجودنا فى حدود آمنة وفى ظل علاقة جوار نتبادل خلالها الخبرات لنحقق التقدم الاجتماعى فى « منطقتنا » . وما هى حدود دولتكم طبقا لدستورها ؟ صمت مطبق . لأن إسرائيل « الدولة العلمانية المتحضرة » .. تستغنى بالتوراة عن

الدستور . وهى دولة مسالمة فلا تريد أن ترسم لذاتها حدودا اكتفاء بما نقلته على جدار الكنيست من أساطير التوراة « من الفرات إلى النيل » .

أما عن مهمة خدمة المصالح الاستعمارية والتحالف مع الإمبريالية . فإن الصهيونية تتحالف مع من يحالفها مرحليا ، ولكنها لا تخدم الا غاياتها ولولا عناد الدول العربية ورفضها الاعتراف بإسرائيل وتهديدها بإلقاء اليهود فى البحر لما استمر تحالف إسرائيل مع الامبريالية . فما على العرب إلا أن يعترفوا بإسرائيل ويقبلوا التعامل معها حتى تستطيع « القوى التقدمية » فيها أن تحرر إسرائيل من ذلك الحلف لتتحالف مع القوى التقدمية العربية فى سبيل مستقبل أكثر تقدمية للجميع . هذه الخلاصة الاخيرة منقولة مما كتبه الذين يدعون الاشتراكية هناك .

هذا ما يقوله الصهاينة « العلمانيون » بعد عشرين عاما من قيام إسرائيل على الأرض العربية . أما ما يقوله الصهاينة المتدينون فهو أقل علما بكثير . ومع هذا فهم لا يختلفون جميعا فيما يهمنا .. وما يهمنا هنا هو أن نعرف نوايا ومخططات الصهاينة بالنسبة إلى أرضنا العربية ، فكلاهما يرى :

أولا : إن اليهود فى جميع أنحاء العالم أمة ، وأن الصهاينة قومية ، وأن الحركة الصهيونية حركة قومية غايتها استرداد أرضها الخاصة من الشعب العربى ، ويكون علينا أن نستنتج أنهم يريدون الأرض خالية من البشر لأنها لازمة لإقامة الشعب اليهودى . وهذا مارسوه فيما اغتصبوه من أرض حتى الآن . وهم يريدونها لاستقبال الشعب اليهودى كله الذى يبلغ ١٢ مليونا . وهذا ما أرسوا قاعدة ممارسته بقانون « العودة » الشهير الذى يمنح كل يهودى الجنسية الاسرائيلية بمجرد الإقامة فى إسرائيل . وبالتالى فهم يريدون أرضنا خالية من البشر تتسع لسكنى الشعب اليهودى كله فهى لابد أن تمتد إلى أضعاف أضعاف أرض فلسطين . وهذا يمارسونه بقدر ما يستطيعون .

ولما كانت الأرض التى يريدونها محددة بقدرتها على استيعاب الصهاينة الذين يهاجرون إلى إسرائيل ولكن محددة على أساس أنها « الوطن القومى » للأمة اليهودية فإن حدودها لابد من أن تكون مطابقة « للحدود التاريخية » لأرض إسرائيل . وهذا ما سيمارسونه مرحلة مرحلة ولن يتوقفوا دونه قط ماداموا قادرين . نريد أن نقول إنه طبقاً لذات « النظرية » الصهيونية التى يلتقى عليها الصهاينة ، ويلتزمون بها فى الممارسة ويحتكمون إليها عند الاختلاف ، ويثيرون تحت لوائها مشكلة فلسطين ، فإن مشكلة فلسطين ، كما ينبغى أن نفهمها حتى من نوايا أعدائنا ، هى مشكلة أرض عربية يريدونها خالية من الفرات إلى النيل .

ثانيا : إن الطرف الأصيل الذى نصارعه ليس هو إسرائيل الدولة ، بل هو الصهيونية المنظمة . وليست إسرائيل إلا الأداة الرسمية المنفذة لإرادة المنظمة الصهيونية . وبالتالى لا ينبغى أن نعول كثيراً على القرارات والمواقف التى تأخذها إسرائيل والتى قد تضطر إليها تحت تأثير المجتمع الدولى . إن تلك القرارات قد تلزم دولة إسرائيل التى كانت قائمة يوم أن قررتها ولكنها لا تلزم المنظمة الصهيونية التى لن تكف عن محاولة إقامة إسرائيل أخرى ، إسرائيل الكبرى .

ثالثا : إن الحركة الصهيونية ذات منطلقات خاصة وغايات خاصة وأساليب خاصة . ولكنها بحكم تخلفها القبلى تفضل القوة وتمجد العنف فهى عدوانية من حيث هى عنصرية . ومع هذا فمما يدخل فى نطاق أساليبها أن تتحالف مع القوى التى لاتتفق معها فى الغايات ولو مرحليا . وهى القوى العنصرية ، أو الإقليمية ، أو الاستعمارية طبقا لما يخدم غايات الصهيونية ، ولكنها تظل مستقلة بمنطلقاتها وغاياتها عن تلك القوى ومستعدة دائما إلى الاحتكام للسلاح . فإذا كانت قد تحالفت مع القوى الاستعمارية المتفوقة ، مع ألمانيا أولا ثم مع بريطانيا ثم مع الولايات المتحدة الأمريكية فلأن ألمانيا كانت ذات مطامع استعمارية فى الشرق العربى لم يمنعها منها إلا

الاستعمار البريطاني الذى حلت محله ـ بالاتفاق ـ الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأوروبية الثانية .

إن العداء للأمة العربية وتحررها ووحدتها وتقدمها هو الذى يجمع بين الصهيونية وحلفائها فى حلف تلتقى فيه المصالح ويتم من خلاله تبادل الخدمات ولكن يبقى لكل حليف قدر من استقلاله . فلا الصهيونية أداة للاستعمار الأمريكى ولا الاستعمار الأمريكى أداة للصهيونية . إنهما عدوان متحالفان ضد عدوهما المشترك : الأمة العربية وهذا الحلف يتسع لكل قوى أخرى بقدر ما تشترك معه فى غاياته حتى لو كانت قوى عربية لها منطلقاتها الخاصة ولها غاياتها الخاصة ولكن تلتقى مع الصهيونية ـ مرحليا ـ فى موقفها المعادى لحرية الأمة العربية ووحدتها القومية وتقدمها الاجتماعى .

فهل يرى الذين يشوهون مشكلة فلسطين إلى أى منزلق ينزلقون ؟

ما الحل ؟

٤ ـ الحل القومى : ـ

استرداد الأرض العربية للشعب العربى . كل الأرض العربية لكل الشعب العربى . أما كيف فهذا سؤال يتصل بالأسلوب وسنعرف الإجابة عنه فيما بعد . المهم هنا أن ندرك بأكبر قدر من اليقين بأن حل مشكلة فلسطين هو استرداد الأرض المغتصبة من قبضة الصهيونية التى تسميها « إسرائيل » وإعادتها إلى الشعب العربى . لو بقيت دولة الصهيونية ولو فى « تل أبيب » وحدها فإن المعركة لن تكون قد انتهت لأن منظمة القوى المعادية ما تزال هناك فى أوروبا والولايات المتحدة وأطراف كثيرة من الارض .

ومن تل أبيب ستعود فتنقض . هذا بالإضافة إلى أن كل ذرة تراب من الأرض العربية هى ملك للشعب العربى لابد من أن تسترد . وعندما تسترد الأرض . كل الأرض ، ستحل مشكلتنا ومشكلة اليهود معا ، نسترد نحن

أرضنا ونضعهم هم أمام الحل الصحيح لمشكلتهم . ولا شك أنهم عندما يعرفون بالرغم من كل شىء أن الصهيونية حركة فاشلة سيعيشون فى مجتمعاتهم ويندمجون فيها ويتطورون . وهكذا يكون استرداد الأرض العربيه هو الحل التقدمى الصحيح لمشكلة فلسطين المغتصبة ومشكلة اليهود الهاربين من مجتمعاتهم .

أليس هذا تبسيطا للأمور ؟

إن فى إسرائيل جيلاً سابقاً على قيام الدولة لم يعرف له وطناً إلا فلسطين. وفى إسرائيل جيلاً ولد بعد قيام الدولة لا يعرف له مجتمعاً إلا إسرائيل . فما الذى سيكون من أمر هؤلاء فيما لو استردت الأرض المغتصبة ؟ ... كثيرون يشغلون أنفسهم بالإجابة عن هذا السؤال كما لو كان سؤالا جادا . وينفعلون فى الحديث ويسودون الكتب ويقترحون « فلسطين الديمقراطية » كما لو كانت الصهيونية قد انهزمت ودولتها قد زالت ، وعاد الآباء إلى أوطانهم وبقيت مشكلة الجيل الجديد من أبنائهم ؟ .. ومع ذلك فعلينا أن نجيب فلعل للسؤال وجها جادا نراه من الموقف القومى ولا يراه السائلون .

بمجرد أن نكون قوميين نتطهر تماما ، فكريا وحركيا ، من خطيئة التمييز العنصرى ونسترد كامل إنسانيتنا ، ويعود إلينا الوضوح فى رؤية المشكلات ، أية مشكلات ، وحلولها الصحيحة . عندئذ سننسى « حتما » كلمة يهودى ونتحرر نحن أولا من رد فعل عنصرى تحاول أن توقعنا فى شباكه المضللة الحركة الصهيونية فتجرنا من حيث لاندرى إلى منطلقاتها ومواقفها . لو فعلنا لرأينا الحل القومى واضحا صريحا .

فالقومية لا تقبل الاستقلال الاقليمى لفلسطين عن الأمة العربية . وفلسطين الإقليمية فاشلة من الآن فى حل مشكلة الإقامة فيها . فهى « دويلة » يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة : الدار المهجورة وقد سكنت والأرض المغتصبة وقد زرعت ،

والأموال المنهوبة وقد أصبحت أموال الآخرين . ثم يقال لهم لا تتذكروا ما كان وعيشوا « ديمقراطيين » كأن الديمقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين .

القومية لا تقبل إلا دولة الوحدة ودولة الوحدة أكثر رحابة من فلسطين . وفى دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون أن يعيشوا آمنين . وسيكون من شأن دولة الوحدة أن تعترف بالمواطنة أو بالإقامة لمن يريد أن يقيم فى رحابها ممن لاينتمون إليها أصلا كما تفعل كل الدول بدون أن يكون فى هذا مساس بسيادتها . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن للأمة العربية أبناء من اليهود فى فلسطين وفى كثير من الأرض . أولئك العرب اليهود . إنهم لسبب أو لآخر يحملون الهوية الإسرائيلية أو هويات أخرى أجنبية . وهم لسبب أو لآخر قد انتقلوا إلى فلسطين أو غادروا الوطن العربى إلى أماكن أخرى . وبعضهم مجندون فى المنظمة الصهيونية أو فى قوات إسرائيل المسلحة . كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية . وأسلاف كل هؤلاء عاشوا عربا وأسهموا بما استطاعوا فى تطوير أمتهم العربية . ولكل هؤلاء حق قومى فى أن يقيموا فى رحاب أمتهم وعلى وطنهم العربى « المشترك » فى فلسطين أو فى غير فلسطين . ولكل هؤلاء حق فى أن تكون دولة الوحدة دولتهم القومية التى تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الأمن وأسباب التقدم الاجتماعى . وكل هؤلاء مطالبون بأن يعبروا عن ولائهم لأمتهم وأن يرتفعوا بوعيهم إلى مستوى المسئولية القومية م وأن يعرفوا أن أرض فلسطين هى جزء من وطنهم العربى الكبير ، وأن لهم حق الإقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل أم كانوا وافدين إليها من أقطار عربية أخرى ، وأن من حقهم أن يعودوا إليها أو إلى أى مكان فى الوطن العربى إن كانوا قد غادروا أرضهم العربية . بل إنهم فى القومية سواء مع إخوتهم العرب الذين أكرهوا على مغادرة فلسطين لافضل لأحد منهم على الآخر إلا بقدر ما يجسد فكرا ومسلكا ولاءه القومى لأمته العربية .

حتى الذين تورطوا منهم فوجدوا أنفسهم فى مواقع الخيانة لأمتهم . ويقتلون أخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة . فإن جزاءهم سيكون معادلا لما كان لهم من حرية الاختيار ، وعلى ما يكون لهم من موقف يختارونه فى الصراع العربى ضد الصهيونية المغتصبة . وقد تغفر لهم أمتهم كل ما تقدم لو حرروا أنفسهم من سيطرة الغاصبين الأجانب لجزء من وطنهم العربى فأسهموا فى استرداده وتحريره . ولكنهم فى كل الأحوال لن يكرهوا على مغادرة الأرض العربية ولن يفتقدوا رعاية دولة الوحدة .

هكذا نرى الحل من الموقف القومى . من موقف تتسق صلابته وإنسانيته مع انتمائنا إلى أمة عريقة ذات قيم حضارية لا يمكن أن يتدنى أبناؤها إلى القيم القبلية التى تجسدها الصهيونية . إننا أمة وهم مجتمع قبلى فلا ينبغى لنا أن نفهم المشكلات كما يفهمون أو أن نحلها كما يريدون أو أن تكون مواقفنا ردود أفعال لمواقفهم . إننا باسم القومية العربية . نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة فى وطنهم العربى وما على الأمم الاخرى إلا أن تولى بمسئولياتها فتحمى أبناءها اليهود من التعصب ضد السامية .

إن نظريتنا القومية ، إذن ، تحملنا مسئولية تحرير العرب اليهود من القهر العنصرى المفروض عليهم فى أرض فلسطين . ومسئولية عودة اليهود العرب الذين غادروا وطنهم العربى وتعويضهم عن أى عسف لم يحترم انتماءهم القومى للأمة العربية .

أما الذين خانوا أوطانهم فهجروها وجاءوا غزاة للوطن العربى فلا مكان لهم فى الأرض العربية . وعليهم أن يلحقوا بأممهم حيث كانوا . ولسنا مطالبين أن ندفع لهم ثمن الخيانة أو أن نقدم لهم مكافأة على العدوان . لسنا مسئولين على أى وجه عن ارضاء التعصب الأوروبى ضد اليهود أو التعصب الصهيونى ضد البشر جميعا . بأن نقيم للصهيونية دولة فى أرضنا سواء فى

فلسطين أو حتى فى الربع الخراب من الصحراء القاحلة . لا أحد يملك هذا ولا أحد يستطيعه .

ومشكلة فلسطين هى النموذج لكل مشكلة اغتصاب أرض عربية . أيا كان المغتصبون .

رقم ايداع

....

رقم الايداع : ٩١/٩١٠٧

الترقيم الدولى : I-S-B-N
977-251-005-7

دار ماجد للطباعة
ت : ٨٢١٢٣٨